بئر أسرار

مجموعة قصصية

أحلام صالحي

بئر أسرار

مجموعة قصصية

أحلام صالحي

رقم الإيداع: 2019/8823

الترقيم الدولي: 977/978_835_103_ 3

زحمة كتاب / اسكرايب للنشر والتوزيع

Email : Scribe20199@gmail.com

الهاتف: 01099727510

جميع الحقوق محفوظة

أنسى- الكون وأحلق في سـماء لازوردية بلا زمان ولا مكان، أشـعر وكأن سيلا من مداد جارف يلخبط أفكاري، أغرق فيه، وأمني نفسي الغرق أكثر فأكثر، ليس لعمقه حد، ولا لقوته منافس، يبدو الزمان كأنه يخط المسـافات ويحدد تعاقب الليل والنهار، إلا في مستودعي، فلا أجد بين الكتب زمان و مكان يكافئ الزمان والمكان الذي تعرفونه، أهب نفسي- للقلم، وأنسـاق بين طيات الحروف، أتمايل وأنجرف مع السـطور، أتنفس عند كل فاصـلة، وأتوقف عند كل نقطة، أندهش مع كل علامة تعجب، وأتساءل عند كل علامة استفهام، أتنقل مسحورة من ركن الاحتراق إلى حد التجمد، أسـافر لأبعاد ضـوئية، وأرتطم بالصـخور الفضـائية، حتى تسـحبني الجاذبية، أتخبط على الأرض لأسـتنشـق الأوكسـجين، بعدها أحلق كطائر نورس وأعبر المحيطات، أجوب البحار وأسـتريح على الأشرعة .

كل الأحاسـيس جبتها ومررت بها، إلا إحسـاس الحب، ذلك الإحسـاس الذي حير الفلاسـفة والشـعراء، والعلماء والمجانين، كنت بدوري أكتب عنه، ويكتسـح جل كلماتي، إلا أنه يبقى مصـطلح الحب عقيما في صـفحاتي، ينقصـه شيء خفي، ينقصه قلب مغرم ينسكب أنغاما ويلعب على أوتار الصدق، يطرق باب المشـاعر، ويتغلغل في الكيان، يقبل قطرات المطر، ويهمس لأمواج البحر أغنية الوداع، الوداع لأشـعة الشـمس التي تلامس سـطح الماء، الوداع لدفء الرمال بعدما أظلم المكان، الوداع للسماء التي تعكس زرقتها على البحر، الوداع لصخب الأمواج التي ترتطم بأعالي الصخور .

نامت الأمواج وأشرق البدر، تحركت رياح خفيفة وذبذبت انعكاس القمر على سطح الزمرد الذي يتلألأ تحت وهج نور خفي يسقط من السماء كسهم غباري لماع .

عندما يشرق الصبح، أترنح بين طيات الفراغ، أقتل نفسي التي استيقظت من جديد لتعيد العزف على نفس السيمفونية ألحانها الرتيبة، أمزق شبابيك النافذة، وأنتحر إلى العالم الخارجي، أغوص في ترنحات الفصول، حيث ألتحف معطف الشتاء وأنا ألامس زهور الربيع، بينما تلطم وجهي أمواج الصيف حتى أتساقط من الشجرة كأوراق الخريف .

أحيانا أنظر إلى الكون، ولا أستطيع التمييز بين اللون الزهري والأصفر، حيث يبدو لي كل شيء شاحبا ودرجة حرارته الصفر، كأنني في سرداب تفوح منه رائحة الموتى، أرى الزهور الجميلة الحمراء، صفراء عليلة، ربما سبقت الدهر لأشواط عديدة، فيبدو لي عمر الزهور قصيرا إلى حد مخيف، كاختفاء ألوان الفراشات، عند لمسها تغدو شفافة لا بريق ولا حياة فيها، بعدما كانت مشرقة ومتوهجة تحلق بحرية قبل القبض عليها وراء الأنامل، وامتصاص نورها، لتموت باردة كالثلج تحت أنقاض الظلام .

أنا فقط أكتب وأكتب حتى أشفي غليلي من فورة الثقل الذي يضخ في صدري ويخنقني حد الغثيان، أردت أن أتجشأ الكلمات التي ترقص على خشبة مزاجي، مزاجي هو من يتحكم في تفاصيل الحكاية، قد تكون وردية اليوم، ثم تنقلب إلى سوداء مفحمة في الغد، قد تطير بك إلى عالم الخيال الساحر، أو قد تهوى بك إلى واقع مرير .

كل شخص يسكنه طفل بداخله، وأنا كذلك لدي طفل يستيقظ وقتما شاء عندما تعكر الحياة صفو مزاجي، أتحول إلى طفل خائف يتكور وسط الدببة القطنية، أتوهم أنني أ سبح في الهواء، وأحلق في الماء كالأ سماك ال صغيرة التي وجدت عالما أزرق عندما فتحت عينيها للمرة الأولى، ولا تعرف أنه يوجد عالم فارغ لن تقدر فيه على التحليق والطيران كما في عالمها، لن تستطيع فيه التنفس عند استنشاق الهواء، ستختنق وتودع عالما غير عالمها .

ذلك الطفل بداخلي يخرج كذلك عندما يشاهد ثلة من الأطفال بأياديهم بالونات بألوان قوس المطر، ينبش المشهد الوتر الحساس في داخله، ويحلق بأمانيه الطفولية فوق ال سحب الناعمة، التي تدفئ القلوب كلم سة الأمومة أو ككنف الأخوة، ترتسم الابتسامة على شفاه الطفل وهو يركض معهم، وعندما تأتي الرياح يحررون البالونات، لتطير عاليا نحو فضاء فسيح، تتحول إلى نقط صغيرة كحبات الحلوى التي يغلفها غشاء خارجي بألوان قوس المطر، يبقى ترقب البالونات يتضاءل حتى تختفي، لكن من الممكن أن تتساقط من السماء كقنابل موقوتة، الأمر راجع للطبيعة، فهي تستطيع أن تتحول من ظبي صغير إلى وحش مروع، يفتك بالأحلام الزهر ية ويحولها إلى كوابيس قاتلة، تقتل الطفولة، الابتسامة، كل شيء جميل، حتى القلم يبدأ بذرف المداد على ورقة سوداء، تكاد لا تميز لونها بين لون الأدخنة التي خلفتها انفجارات القنابل الموقوتة.

تنام السماء ويبقى الكون مستيقظا في ذاكرتي، بكل تدرجات ألوانه، من شمسه إلى تلألأ نجومه التي تشق بنورها أسرار الظلام، كيف من الممكن أن يكون السواد غامضا، تخيل أن تنظر إلى صورة سوداء ويطلب منك أن تستوحي

منها قصـــة، هل ســـتتأملها ككيميائي يحلل مادة ليفكك تركيبتها المشـــفرة، أو كمحقق ينبش في عملية جريمة معقدة، كيف لل سواد أن يحرك الغرابة داخلك، يتغلغل في جزء من حدســك الفضــولي، الذي يبحث عن حقائق وأسرار ما وراء الطبيعة، ماذا يعني السواد؟ هل يعني الموت أو الحياة، الجمال أو القبح، اللذة أو المرارة .

لولا السواد كيف سنعيش، لو لم يكن هناك سكون ليل ولا أحلام تتبعثر من جفون مطبقة، هل سنستطيع التفسح في كينونة العالم الخفي، نندرج تحت خفوت الضــوء، ونســبح في خيالنا الذي يلاحق ترنحات طيفية، تســبح في عمق الفضاء، تموه الألوان الأخرى، لتلتهمها كقطعة حلوى، فلن يتبقى إلا لون العمق والغموض، اللون الجذاب الذي يأسر عيون العاشقين للسهر، المغرومين بالانفراد وتصـــفح كف الخيال، تلك المادة الدفينة للون الأحجيات الملغزة، والرموز المنقوشة على كهوف ظلماء، وحتى الأحرف الهيروغليفية التي يغطيها الرماد .

تخيل أنك تتجول وسط غابة في وضح النهار، حيث دفء الشمس يسري بين عروقها، ماذا لو سلطنا على هذه البقعة الخضراء، اللون الأسود، حيث الليل يسدل عليها ستائره، وتصبح حالكة، إنها نفس الغابة، نفس الأشجار... لكن ما الذي تغير الآن، هل اللون الأسود زادها هيبة و غموضا، أصبحت لغزا يسحر الناظرين، ويخيف الأطفال تحت قصــص الأشــباح والعالم الخفي، يجدون متعة غريبة عند اســـتراق أحاديث العالم الآخر، وتلتمع حدقة أعينهم تحت وهج المصــباح الخافت، الذي يعكس الظلال، بالأنامل تســتطيع تشــكيل حمامة لكن سوداء، فذلك ليس بظلها الحقيقي، ولو كنا نتقن رسم الأشكال، فسيبقى ظلا مزيفا، إلا إذا أحضرنا حمامة حقيقية، ولو كانت بيضاء، فظلها سيبقى أسودا،

لو اجتمع علماء العالم على إنشاء تركيبة تغير لون الظلال فلن يستطيعوا، لهذا فالطبيعة لها قوة هائلة في التحكم بنمطية الحياة، ورسمها بألوان نسقية، دقيقة واحترافية، تتراوح بين الألوان القانية والفاتحة، لعلنا تساءلنا في بعض الأحيان، لم لون الشجر أخضر ـ وليس لونا آخر، لم السماء تبدو زرقاء، لم المياه شفافة، لم الغيوم بيضاء، وحين تمتلأ بالمطر الشفاف تصبح سوداء، وحتى أن الأبيض عند امتزاجه باللون الأسود يعطينا اللون الرمادي .

أتكلم وأتكلم، والقلم يرسخ أقوالي، مزاجي كان اليوم غائبا بين قوة الخيال وجذب الواقع، حيث الكلمات لو بقيت داخلي، ستتبدد كوهم بلا دليل، وان استفرغت في السطور فستصبح واقعا ملموسا، ورقة تستطيع أن تبعث فيها شهقة الحياة، في كل لسان يقرأها، وفي كل أذن تسمعها .

لدي ما لا نهاية من القصص في ذهني، والتي من الممكن أن تغوص بك في عوالم مختلفة مع شخصيات وأحداث وأسرار تفضح رغبتي الدفينة في خوضها .

مآسي، أفراح، أحلام، خيال، مجتمع عقيم، واقع قاسي، كلها سطور تنطلق تحت سلطة مزاجي .

أجمل ما يمكنني أن أحلم به هو مشاركة مشاعري مع قلوب لا تعرف في الحياة سوى الجمال الباطني، وتنظر إلى الأشياء بعمق، وأقسى ما يمكنني أن أعايشه هو قلوب تطمع في امتلاك أحلام الآخرين، وتسعى لتكبيل أياديهم وكسر أقلامهم، حيث يكون القلم هو متنفسهم الوحيد، ليقتلوا كل شيء جميل يمكن

أن يمطر ألوانا على صحراء مقفرة، فتتحول إلى فردوس أخضر تتفجر فيه الينابيع من أعالي الجبال .

لكم تذكرة مجانية للصـــعود إلى طائرتي الخاصـــة، ضـــعوا حزام الأمان، فرحلتنا ستبدأ للتو، لكل قصة حكاية مختلفة، قد تسافر بكم لأبعاد كونية، أو قد تسقط بكم في هاوية ظلماء!!!

الروح الغاضبة

كتبتك هامسا بين السطور، ورسمتك على شفاه الحالمين بين الزهور، أنت الزمان العابر، أنت النسـيم الغابر، أنت القلم الذي يحاكي الواقع على سراب، كنت حقيقة الماضي، والآن أنا أكلمك في حاضري، أحول مداد القلم إلى ذكرياتنا معا، وبين الحنين أذرف دموع الخيبات على ضـفاف العزاء، أسـهر على وجع محاولا لملمة شـتات الأمل، وأرش ما تبقى من عبوة عطرك على حشـائش الخريف، كي تسـتقبل الربيع خضـراء زاهية بعدما انتشـلت من رحم التراب وانتعشت هاهنا بروح الحياة بعد الوفاة .

حملت هاتفي وضغطت على زر التشغيل حتى سطع النور على وجهك الملائكي الذي يسـكن الشـاشـة، ألقيت بنظراتي إلى ذلك الطفل الذي تحملينه، ربما أحسده كثيرا، وبل إنني أغبط تلك السعادة التي بانت في عينيه المتلألئتين حلما وتفاؤلا، عزا وأمانا، أحاول استرجاع ذلك اليوم الذي في الصورة، كان الطفل يترنح ببهجة غامرة بين التلال النضرة، يقطف من الثمار ما لذ وطاب، يغوص في مستنقع الوحل ليصبغ جلده بلون الشكولاتة، وعندما يعود أدراجه إلى البيت الحقير يبدو كجذع شجرة متنقل، ثم يطرق الباب بساعديه المتيبسين واللذان اخترقت التشققات عبابهما كتجاعيد مسن، فتحت له الباب والذهول باد على محياها، ومن فرط هول المشهد أخذت تمطط وجنتيها بأناملها الخشنة، فتسمر في مكانه كصخرة جافة تحترق برمال الصحراء .

كنت أنا ذلك الطفل الطائش الأحمق المدلل، سريع الغضب والصراخ، والذي لا يكترث لظروفك القاسـية، كما أنه قد ألف الحصـول على كل شيء بإشـارة من سـبابته، كنت تلك الأم العطوف الحنون، بلسـم الجراح والهموم، بل وكنت كل

شيء بالنسبة لي، لكنني لم أكن أعرف ذلك، بل لأنني كنت مجرد طفل غبي لا يعرف ما لديه من رحمة وحياة بلون السعادة .

دخل جدي المنزل عنوة، وبخطى خفية تقدم نحونا فجلس على الكنبة المقابلة لنا، وهو يحمل بين يديه كيسا قطنيا أسودا، وبابتسامة جانبية فتح الكيس وأخرج منه مجسما غريبا، لم أر له مثيلا، لأننا كنا نسكن في قرية منعزلة، بعيدة عن الحضارة والعصرنة، وجدي كان يتنقل بين المدن بحكم عمله كتاجر، ولأن قريتنا لا تعتمد إلا على الفلاحة وتربية المواشي والدواجن .

حمل ذلك الشيء بين يديه وهو ينظر إلينا بنظرات توجس قائلا: يا له من طفل عديم المسؤولية، ألا تكترث لأمك التي تتصبب عرقا وهي تنظف وتطبخ لتعيش مرتاحا، يجب عليك أن تعتمد على نفسك قليلا، هيا اذهب لتستحم حالا .

كان صوت جدي فوق كل الاصوات، متجبرا وسليط اللسان أحيانا، أقسى من أسد أمام غزال، وأرحم من أم حنون، متحكما في زمام الامور، رغم الشيب الذي صبغ كل خصلات شعره، مازالت قوة الشباب تصبغ قلبه .

أمسكت أمي بيدي، وسحبتني نحو الحمام وأنا أصرخ مكرها، حتى تصدع صوته الارجاء مزلزلا وهو يصيح: إذا لم ترد ذلك، فلأحممك أنا، لكن بالماء البارد .

بعد وهلة استحممت، فحملتني أمي على خصرها وهي تجفف شعري بالمنشفة، حتى تقدم جدي نحونا وبين يديه ذلك الشيء، فقال: هيا أريد أن

أخلد هذا اليوم ذكرى، سأقوم بالتقاط صورة لكما بآلة التصوير، فلتكن الصورة تحمل وجوها مشرقة .

وهكذا أنا الآن أنظر إلى هاتفي كل يوم، وإلى تلك الصـــورة الأولى التي التقطت لنا، أحسست برعشة باردة اكتسحت جسمي، والهاتف بدأ يهتز بين يداي من قوة الرجفان، حسبت أنني كنت سأسعد أكثر وأكثر كلما حصلت على تلك الأشـــياء، لكنني أدركت بعد فوات الاوان أنك كنت كل شيء بالنســـبة لي، وحين فقدتك فقدت كل شيء، كنت أنت جوهر السعادة والباقي تقليد وزيف، كنت أنت أصـــل الحياة الحقيقية وطريقي نحو القمة، كانت الارض تشرـــق بنورك والبساتين تنحني لمرورك، سألتك ذات يوم: هل سنعيش للأبد؟ وأجبتني: لا بل سنرحل كما تلك الزهور، تنموا وتخضر لتبدو نضرة، لكنها تصفر في فصل الصيف لتتحلل في مقبرة الخريف .

أتذكر جيدا عندما لم أســـتطع كبح دموعي الفضـــولية التي أطلت من شرفة جفوني محاولة الخروج، حتى صرخت فجأة بالبكاء، ولا أدري كيف أحسست بالأمان بعدما شدت يداك كتفاي وسحبتني نحوك لتضميني بشدة وأنت توشوشين داخل أذني بكلمات انحبست نغمتها في جوف رأسي، وسكن دفء هدوءها بين طيات روحي: اسق حديقتك جيدا ولا تدعها تموت، فروحي تقطن كل شتائلك وزهورك، اعتني بي، سأكون جد سعيدة .

بعدما صعدت روحك للسماء يا أمي، كنت ما زلت طفلا، عندها أدركت معنى القسوة والحرمان، لطالما كنت أظن أنك كنت قاسية معي حين صرخت علي عندما كسرت البيض بعدما أفزعت الدجاجة التي كانت تحضنه، أو حين حرمتني من أن أفرط في أكل المربى اللذيذ الذي كنت تصـــنعينه، خوفا علي من

أن أمرض، لكن الآن قســوتك رحمة، وصراخك موســيقى أحتمي بها من الألم، كنت خائفة علي، تتضرعين بيأس كي أبقى معك في ضفة الامان، كنت لا أرى في صراخك إلا الوجع، ظانا أنك تستمتعين بالصراخ علي، لمجرد أن أغيب عن المنزل لنصف يوم تبحثين عني ولو كان إيجادي مستحيلا تجدينني، لا أعلم حتى الآن ما سر ذلك، لكن أظن أنك تستعينين بمساعدة تلك الشخصيات التي حكيت لي عنها في أغلب قصصك، وكما ذكرت أنها تسكن حول منزلنا، تلك الكائنات التي كنت تخيفينني بها لكي لا أتأخر عن المنزل، لأنها كانت تســتيقظ ليلا، لكن تهوري هذا أدى بي إلى واقع لا يحمد عقباه، إلى أفظع ذكرى نقشت على شريط الذاكرة، لم يســتطع الدهر إتلاف حتى جزء منها، حتى أضــحت النقوش حفرا جســيمة في رأسي، وبدأت تحقنني بالشــقيقة والصــداع، كنت أخيطها ببعض المسكنات لكنها تنحل مجددا لينفجر صدغي بحرقة عاتية .

أنا الســبب في فقدانك، أنا الســلاح الذي طعنك بطعنات الغدر، حين عصــيت أوامرك، خرجت ليلا من المنزل، شــاقا طريقي نحو الجبال، كان البدر مكتملا وصــوت الذئاب يعلوا كلما تقدمت، على حين غرة أفزعني صــوت أمي وهي تناديني وتركض نحوي بسرــعة، حتى حامت حولي الذئاب، وهي تزمجر بشرــاســة واللعاب يقطر من أنيابها المكشرــة، أطلقت أمي صرختها وحملت قطعة زجاج مكسورة كانت ملقاة على الطريق، وبضربة قاضية طعنت نفسها، وبدأت تنزف من بطنها، اشــتمت الذئاب رائحة الدماء وابتعدت عني لتنهش جســد أمي وهي تصرــخ علي، وقد كانت آخر صرخة تؤكد لي أنها تود مني أن أتجه إلى ضفة الامان، ريثما تلتهي الذئاب بتمزيق لحمها .

كبرت يا أمي وعدت إلى ذلك المكان كقناص محترف، أطلقت رصـــاص بندقيتي على كل تلك الذئاب التي كانت هناك، و ها أنذا أحتفظ برؤوسها، وفي كل مرة أنظر إلى وجهها المشـــؤوم وإلى لثتها المقتلعة الانياب، وأهمس قائلا: لا يوجد من يستطيع أن يؤذي أمي مجددا، أنتم الآن ذقتم الويلات لكن لم تكونوا على علم بفظاعة ما اقترفتم، حرمتم ابنا من أمه، وبســـببكم عشـــت كجثة مقطوعة الرأس، لكن كل شيء بســـببي أنا، لقد شـــاركت في عملية الجريمة، أنا الذي أحضرـت أمي إليكم، هل أنضـــم إلى رؤوســـكم يا ترى، لأن أمي ليســـت سـعيدة كما كانت تدعي أنها سـتكون، أمي تنهال علي بالكلام الجارح كل ليلة، ودائما أسمع صراخها الذي يدل على أنها ليست راضية عني ولن تغفر لي .

الفراغ الثالثة

كنت أمشي- على الرصيف محملة بأكياس التسوق، حتى بدأت الغيوم تجهش بالبكاء لتنهال علي الدموع كوخز الإبر فوق رأسي، ركضت مثقلة وكأنني أحمل الاطنان على ظهري، فالتصقت الملابس بجسمي وأعاقت حركتي، وأنا أحاول أن أجد سقفا لأحتمي تحته، حتى وجدت شجرة وحيدة تتمايل بأغصانها الوارفة، تبدو وكأنها تناديني لآتي إليها وأواسي حزنها في هذا اليوم المغيم الكئيب.

اقتربت منها وأسندت رأسي على جذعها الخشن ريثما يتوقف عويل السماء، بدأت أسمع أصوات خافتة تصدر من قلب الشجرة، كأنني لست الوحيدة التي تحتمي تحت هذه الشجرة المنعزلة المتكومة على نفسها خوفا من كشف أسرارها، وقد اختارتني أنا لكي تشاركني سرا من أسرارها، تأملت بين ثنايا الأوراق ولمحت قرصا مغزولا من حطام العيدان، عندها أدركت أنه وكن طائر عديم الحظ فقد كان العش مائلا للآخر، ويبدو متلفا بسبب المطر، مددت يداي بسرعة لأمنعه من السقوط فلمحت الفراخ الثلاثة التي كانت في حالة هلع، كان منظرا مأساويا، حملت العش بأكمله ثم وضعته في كيس من أكياسي القطنية، احتضنت الكيس برفق عسى أن تنجو الفراخ من صقيع الشتاء، انتظرت كثيرا حتى هدأ المطر بعدما أغرق الارض في بحر من المياه، رفعت رأسي وابتسمت إلى الشجرة الحزينة شاكرة، ومضيت في طريقي أتخبط بقدماي على المياه وأنا أحتضن الأكياس، ولا زال صفير الفراخ يتردد في أذناي كضمان أنهم على قيد الحياة، وصلت إلى بيتي الصغير بعدما تخدرت ذراعي من البرد الذي اكتسح كل أطراف جسمي، وحتى ساقاي لم أعد أشعر بوجودهما، في لحظة فتحت الباب بدأت أبحث عن علبة متوسطة الحجم، حين وجدتها أثثتها بلحاف ناعم، أخذت الفراخ ووضعتهم داخلها، شغلت المكيف طلبا للدفء،

بعد أن جففت نفسي ـــ وملابسي ـــ حملت العلبة بين يداي، وأنا أراقب تلك الكائنات اللطيفة التي ولجت باب قلبي بلا استئذان، قمت بإطعامهم ومسدت بأصـــابعي النحيلة على ريشـــهم الذهبي حتى أطبق النوم جفونهم، شـــغلت التلفاز على قناتي المفضلة التي كانت تحفل ببرامج واقعية وأفلام الرعب، لطالما كان ذلك العالم يســـتهويني، وفي اللقطة المشـــوقة توقف بصرـــي على التنانين الثلاثة التي تهاجم المدينة وتحطم البنايات الشـاهقة، كنت أشـاهدها في حالة توجس وهذيان، وكأن ذلك العالم قربني كثيرا لصـــورة قد رأيتها من قبل ولا أتذكر أين، دخلت في قلب الاحداث وعشـت الدور حتى تخلد في ذهني صـور فراخي الثلاثة، قمت من مكاني لأحصـل على كأس من الماء، فسـمعت صـوت ارتطام قوي، اتجهت إلى مصـــدر الصـــوت، وهنا برقت عيناي للمفاجأة، رأيت العلبة قد سقطت من موضعها وانتشل اللحاف كأنما السكاكين حشرت في كبده وخلفت خطوطا غائرة لا تندمل، بعدها عدت لأسمع نقرات أظافر فوق سطح منزلي، وأنا متأكدة أن شـيئا ليس على ما يرام يحدث اليوم، قد تتحول شـاشـة الكوابيس إلى حقيقة، صـــعدت الســـلم المؤدي إلى الســـطح، وكلما صـــعدت تصاعدت وتيرة صوت غريب احتوى أفكاري و سيطر على دقات قلبي، توقفت لحظة وأنا أترصد تلك الاحجام الغريبة المظلمة التي تقف أمامي، اتضح المشهد الاكثر رعبا، تيقنت حينها أن فراخي الثلاثة قد تحولت إلى طيور عملاقة ذات مناقير رفيعة قد تقضمك بها في ظرف وجيز، ثم ترمي بعظامك لكلاب الطريق، اسـتجمعت قواي وتسـمرت أمامها وأنا أهدئ من روعي، لأفكر، فالخوف يولد الجنون والغباء، بعقلك تســـتطيع أن تنجوا، حتى تذكرت أن النجاة تكمن في عدم اثبات الذات، فهي ترعب بشـكلها كي تشـتم رائحتك لا لكي تراك، فالرؤية عندها شبه منعدمة، تريد أن تنتشي منك الخوف لكي تستطيع الظفر بك .

تكومت بلا نفس كالصخور، بقيت جامدة لدقائق وأنا أقطر عرقا، أحاول طرد الرعب الساكن داخلي، حتى عصفت رياح أجنحتها لتلاعب خصلات شعري، تبخرت في الهواء، انفتح ضوء ساطع أظلم عيناي من شدة بريقه وسحبني كدغدغة لطيفة، حينها سمعت صوت طلقات البندقية، حملقت في الفراغ حتى عدت لرشدي، وأنا أجول بعيني كل زوايا غرفتي، كانت الطلقات تصدر من شاشة التلفاز، حيث الطائرات الحربية تعلو لتقصف التنانين الثلاثة التي تهدد حياة سكان المدينة، فجأة تذكرت فراخي الثلاثة، ذهبت نحو العلبة التي كانت ملقاة على الارض، بعدما أتلفتها أعاصير الرياح التي تسربت وراء ستار النافذة، لم أجدهم وبحثت عنهم بيأس، أمضيت الليلة في حالة قلق وحزن .

أشرق الصباح بجلاء نوره بعدما تناثرت السحب في ذمة السماء، انقشع الغيظ والغم، ابتسمت الشمس بأشعتها الدافئة، ذهبت مجددا إلى التسوق، وفي طريقي المعتاد لمحت منظرا عجيبا، كانت تلك الشجرة مدمرة بالكامل، لكنني أحسست بسعادة غامرة وقلت في نفسي: من دمر الشجرة هل الرياح العاتية أم فراخي الثلاثة؟

الشيطان الوسيم

فوجئت عندما التقيت بك في الحقيقة، لم أصدق ذلك حتى رأيتك بأم عيناي، لقد كنت تتحرك على أرض الواقع.

درست الفن لسنوات وبدأت أرسم اللوحات وأقوم بعرضها في المعارض الدولية، كانت الوجوه التي أتفنن في رسمها واقعية تعود لعارضي الأزياء

والمشـاهير، كان صـعبا علي أن أتفنن في رسـم لوحة من خيالي، وقد أتيحت لي الفكرة عدة مرات، كي أرسم وجها بشريا لا يشبهه وجه على أرض الواقع، مضت السـاعات تلو السـاعات ولم أفلح في ذلك، كنت أمزق الاوراق إلى أن تعبت، وأصـبحت الهالات السـوداء تحيط عيناي كدب الباندا، تذكرت المرأة العجوز التي كانت في المعرض، وقد أعطتني بطاقة مكتوب عليها عنوان غريب، ونصـحتني بالذهاب إلى ذلك المكان كي أسـتوحي منه الإلهام الذي سـيبسط لي أجنحة التميز على لوحاتي، أطبق النعاس جفوني، وفي الصـباح اسـتقليت القطار إلى حيث يوجد العنوان، بعد رحلة طويلة تأملت حشـودا من الناس يعبرون الشـارع المقابل للنافذة، توقف القطار، فبدأت أحملق بعيني حائرة، نزلت من درجتي السلم بخطى مرتبكة لأصطدم بذلك الجمع الغفير، تتبعت مسيرهم إلى ذلك المكان الغامض الذي يقبع فيه السـحر بكل تجلياته، وانتهي بي المطاف إلى تحفة كريسـتالية، التمع بريقها على بؤبؤ عيناي، أسرت قلبي وعقلي، كانت التحفة تعلو وسط بركة مياه، عكس شعاع الشمس تكسرات الكريستال على مياه البركة، اقتربت من التحفة ونظرت إلى تلك المياه الصـافية، ثم فجأة أتت امرأة ورمت بقطعة نقدية على المياه حتى تبعثر الهدوء وتذبذب انعكاس وجهي، فهمست لي فجأة: أين قطعتك النقدية؟ ألم ترميها بعد؟ أجبتها بدهشة: ولم سأقوم برميها، لم أفهم .

"ألا تعرفين، ولم أتيت إلى هنا؟ ."

"لا أعرف حقا، لكن شخصا نصحني بالمجيء إلى هنا لكي أتفرد في عملي، وأرسم وجها بشريا لا يوجد على أرض الواقع ."

"بالطبع ســـتتحقق أمنيتك، إن ألقيت بقطعة نقدية ونظرت مليا إلى انعكاس صورتك."

قالت كلماتها وتركتني محتارة لأنني من النوع الذي لا يؤمن بمثل هذه الخزعبلات، لكنني أتيت طوال الطريق، فلم لا أفعل ذلك؟ ألقيت بالقطعة النقدية وبدأت أنظر إلى انعكاس وجهي المترنح، وأنا أحدق في المياه حتى أصابني التيه والدوار، لكن شيئا مخيفا قد حدث حقا، اختلج قلبي، وتسارعت نبضـاته، ذلك الشيء الذي لم يسـتوعبه عقلي قد ظهر في انعكاس صـورتي، إذ تغيرت ملامح وجهي، وأصـــبح وجه غريب يطل من بركة المياه، بدت صـــورته اسـتثنائية وفريدة من نوعها، لم أر وجها بشريا كهذا من قبل، بدأ حس الإلهام يسـتيقظ في كياني، واكتسـح شـعور غريب طيات وجداني، كأنني رأيت لوحتي المستقبلية التي تخلدت في ذهني، وكأنني رأيت التميز والابداع الذي به ستهتز كراسي المتفرجين بالهتافات والتصفيقات، وسيستمر انطباع لوحتي على النفوس مدى الزمن، ســـتغير نظرة ذوي الشـــعور البارد إلى دفء وعشـــق تجاه الفن، أضحت الصورة تسكن مخيلتي وتتربع على عرش خلدي، عدت بأنفاس التجدد حالمة بغد أفضل، وقفت أمام الصفحة البيضاء، حملت معداتي وباشرت الرسم، اكتملت اللوحة حتى أصـبحت وجها بشريا اسـتثنائيا لشـاب أشـقر وسـيم، لا يوجد له مسـتقر سـوى بركة المياه، أصـابني الذهول والاندهاش لتلك اللوحة التي اخترقت أفق الابداع لمدى جماليتها، المهم أن ذلك الوجه ســـيبقى لغزا، وستكثر الإشاعات والأقاويل على قصة الشاب الوسيم .

مضـت الأيام وأصـبحت اللوحة تسـتقطب الآلاف من البشر حتى أنها أخذت مكانا مهما في المتحف العالمي الشهير، أصبحت ذات شهرة واسعة، وذاع

صيتي في الاوساط الراقية التي تتذوق الفن كما تتلذذ لمذاق القهوة السوداء، حتى أنني سحرت بذلك الوجه وتعلقت به لدرجة كبيرة، كان دائما يزور أحلامي ويتفنن في العزف على أوتار قلبي، فتمنيت حقا أن ألتقي بذلك الوجه على أرض الواقع، عندها عدت إلى مكان التحفة الكريستالية وألقيت بقطعة نقدية أخرى، مكثت هناك أراقب المارة والوجوه، لكن لم تصادف عيناي ذلك الوجه، عدت خائبة الأمل .

دلفت إلى حديقة غناء وجلست على إحدى الكراسي المتراصة على ضفاف النهر الرقراق، كانت الشمس مبهجة والسماء مزدانة بسحب متفرقة على شكل أفئدة، كنت أتأمل كل ذلك الجمال الذي يسري على جناح السحر والبهاء، حتى فوجئت عندما زرتني في أحلام اليقظة، أو كما كنت أظن، لا وبل كما تخيلتك في لوحتي الفنية، فاقتربت مني وقلت: عذرا آنسة هل قمت بمناداتي من صفحتك البيضاء؟

"ماذا تقول؟ من أنت؟ لا أعرف ماذا تقصد بقولك؟ "

"لقد تمنيت أن أصبح حقيقيا فقمت بإخراجي من لوحتك ."

قمت من مكاني وقد برقت عيناي بالحيرة الممزوجة بالغبطة والبهجة، نظرت إليه بشرود وارتباك ثم تمتمت قائلة: نعم كم تمنيت أن أراك على أرض الواقع .

مضت الايام وبدأ يبيع لي أحلاما زائفة، ويرسم لي جبال العشق المضمحل على سراب صحراء قاحلة، استدرجني متلاعبا بعقلي المسحور حتى تعلم مني فنون الرسم والظلال، طلب مني ذات يوم أن يرسمني على تلك اللوحة التي أصبحت

بيضـاء بعدما انتشـلته منها، بالفعل تفنن في إبداع ورسـم وجهي، بينما أنا في حالة بهتان شديد، وما زاد من تعلقي به هو ذكائه الخارق وسرعة تعلمه .

اسـتيقظت في عالم أبيض كالكفن وأنا أبحث عن ألوان أخرى، وبدا لي أنني الوحيدة التي تتميز بألوان تختلف عن ذلك العالم السـاكن الذي أرعبني كأنني رأيت الموت أمام عيناي .

توقف الشـاب الوسـيم وهو يسـتعرض لوحته في المعرض الدولي، وسـط تصـفيقات وهتافات معجبيه بدأ يتأمل وجهي وهو يهمس: نعم لا يوجد وجه بشـري يشـبه رسـم لوحتي على أرض الواقع، والآن تذوقي الفن جيدا، والعالم الذي وضـعتني فيه وأنت تنظرين إلي وتبتسـمين دائما، وأنا أحترق في كفن الجحيم .

بعدما مضى في طريقه، تسربت من عيني قطرات من مداد الحبر الأسود.

حقل الذرة

ترددت عن عزمها الحتمي بخطواتها الجازعة، كتبت موعد رحيلها على صـفحات القمة نحو الأسـفل، كانت تضـمر كل ذلك العذاب واليأس في رحم قلبها، تحضرت لذلك اليوم بكسوتها الباهتة ووجهها الناحل، كان صوتها يئن في صمت وصداع أفكارها يطعن مصيرها الذي قيدته بأحلام وسط كوابيس كاتمة لمعزوفة الفردوس، كانت تضـاريس الماضي تحف بأوراق الشـجر، والجداول الرقراقة تفيض على السـهول التي تترنح شـتيلاتها بين النسـائم العليلة، الحياة كانت تقطر نعيما وعيشـا كريما، والنحل يصـب عسـلا على ألوان من أزهار العدن، وتنبثق من غيوم السـماء خيوط سـاطعة تبسـط الضـياء على سـفوح

الجبال الشاهقة، تخبرني تلك الظلال السوداء الضخمة السابحة في الفضاء أن الكون بخير، وأن الارض لا زالت تستفرغ من أحشاءها الثروات بسخاء، لتطل الشمس من عالم المحيطات وتحتضن قوس المطر.

كانت الفتاة الوحيدة في ضيعة الذرة التي تنهض بكل الاشغال البدوية، تنظف الحظائر، وتستحلب من ضرع الابقار أجود الالبان، تشق الارض، تقلبها لتزرع البذور، وتحصد منها أطيب وأحلى الثمار، توفي والديها وعاشت تحت كنف جدها الذي كان الآمر الناهي، صلب الارادة، شديد البأس وقوي العزيمة، يقف وقفة جندي مجاهد، قاسيا كجلمود صخري، كان الجدار الآمن والدرع الواقي لحفيدته الوحيدة من ابنه العزيز، الذي يذرف الدمع كلما رأى عيناها اللتان ورثتهما عن ابنه، يتذمر كثيرا حين تقوم بكل الاشغال عوضا عنه، لا يريد منها أن تشقى أو تتعب، لكنها تأبى أن تجلس مكتوفة اليدين، وأقنعته أن ذلك يسعدها كثيرا ويلهيها عن رتابة الوقت.

مر الزمن وترعرعت الفتاة في عز جدها كالأميرات، لكن عهد الأمان والأحلام لم يدم ولن يدوم، حين أصبح جدها طريح الفراش، حالك البشرة، غائر العينين، وجسمه وهن بشدة برزت أوتار دراعيه وقدميه، أصبح يعيش كالميت الحي، يتنفس بصعوبة، ووقتها أحس بأن أجله قد حان، نادى على حفيدته وطلب منها أن تحضر له ورقة وقلما، عندما قامت بإحضار ذلك، بدأ يكتب وصيته الأخيرة، وهي أن كل أملاكه ستصبح ملكها، ولا أحد يحق له التدخل في الوراثة، لأنه قد تم هجره من طرف أبنائه، و عند موت ابنه الكل تحاشى النظر إلى ابنته وأبى أن يتكفل بها، بعدما أنهى الكتابة، ارتخت يداه وبردت أقدامه،

بدأ جبينه يقطر عرقا، وأطبق الضعف عيناه، سرت وحشة من الخوف في قلبها الذي اهتز صياحا وهي تراقبه في بهتان .

حين عم خبر موته، تحققت مخاوف الجد، حيث جاء الأعمام ومعهم عشيرتهم، وهموا يتصنعون الحزن بمنظر مثير للاشمئزاز، لن تجد فيهم سوى ريح الجمود والقفر كصحراء جافة ليست بها ذرة حياة، ظهروا من العدم كالذئاب الجشعة بعد هجران أبدي، وأضحوا يتهامسون فيما بينهم حول الضيعة والأرض وكل الخيرات من أبقار ونعاج، وهي بينهم كحشرة دقيقة، لا أحد لاحظ وجودها، حتى تقدمت إلى عمها الأكبر، وأخبرته بشأن الوصية، خرجت عيناه عن محجريهما، وامتقعت سحنته، أخذ ينظر إليها في شرود ثم قال: هل كتب لك كل شيء، لكن لدينا الحق كذلك في الإرث، لأننا أبناءه وأنت حفيدته، نحن الأقرب إليه، إذن نحن الأولى بحقوقنا في الميراث، زيادة على ذلك، أنت ما زلت طفلة، لا يحق لك الحصول على شيء ضخم مثل هذه الضيعة، ثم إن الوصية ملغاة لأن والدك من كان يحق له الحصول على حصته، لكنه غير موجود، لذلك فنحن سنتكفل بكل شيء، أين الوصية يا بنيتي، أعطني إياها ولا تتحدثي مع أحد عنها، فسيسخرون منك .

تجمدت قدماها من القهر والعصبية، أحست بأنها وقعت بين مخالب الذئاب، وفي قفص الظلم والاستبداد، بدأت تتجشأ نار العذاب، عندما أسدل ستار الحرية على مسرح الأحلام، تبددت كل الألوان وتوحدت في لون واحد وهو لون الظلمات اللامتناهية الشرر .

قاموا ببيع الضيعة وكل ملمتر من الخيرات، وتقاسموا الأموال فيما بينهم، وأخذوا الفتاة معهم إلى المدينة الخانقة، وتكفل عمها الأكبر بها، بل

وسجنها لكي لا تفضح أعمالهم في أقرب فرصة ممكنة، أصبحت تشتغل عندهم كالخادمة، وتستحمل الالفاظ النابية والعنف الجسدي من زوجة عمها، ضاقت ذرعا لأنها لم تتحمل ما يفوق طاقتها، على الأقل كانت الطبيعة ورؤية الجبال تؤنسها، أقسمت أن تعود للبلدة، خرجت بخطى خفية إلى رحمة الشوارع، وبدأت تجر خطواتها بثوبها الأبيض الباهت كجثة تدثر الكفن وقد هربت من التابوت، توقفت نحوها شاحنة النقل، خرجت منها سيدة يبدو على وجهها اللطف والوقار، ثم سألتها: ابنتي ماذا تفعلين هنا وحدك في هذا الصباح الباكر. نظرت إليها بعينين متورمتين ووجه مخطوف فأجابتها: أتوسل إليك، أوصليني إلى حقل الذرة الذي يقبع تحت سلسلة جبال الريف. فقالت لها: بالطبع يا بنيتي، اصعدي الشاحنة، سأوصلك إلى هناك.

طفقت مسيرها نحو أرض الحياة، كطير يحلق بحرية، غفت باستسلام وهي تبتسم لأنها ستلتقي أخيرا بموطنها الدافئ، بعد وقت أحست بيدان تنتشلاها من حلم جميل، فا ستيقظت على صوت تلك المرأة وهي تخبرها أنها قد وصلت. احتضنتها بشغف شاكرة لها عظيم صنيعها فحسبت خطواتها الملهوفة عشقا نحو أحلامها، لكنها صعقت بهول المشهد، أين هو النعيم؟ لقد اختفى صوت رقرقة الأنهار، أين حقل الذرة، لقد تحول إلى صحراء قاحلة، أين؟ وأين؟ وأين؟ كل الخير تبدد في الهواء كأنه لم يكن، منذ هجري لهذه الأرض لم تعد السماء تمطر ولا الأرض تزهر، ولا المواشي تأكل، حتى أضحت عجافا وماتت، ومن اشتروا الأملاك قد هجروا البلدة، ما هذا؟ كل الاحلام التي بنيتها هدمتها الكوابيس .

تقدمت نحو الجبل حتى بلغت القمة، وأخذت تنظر للأســـفل وحال لســـانها يقول: نعم ســـألقى حتفي من أعلى المنحدر، ســـأتبخر معه لأنني لا أحتمل العيش وسط كل هذا الجحيم، أغمضت عيناها ومالت باستسلام، لكنها أحست بيد دافئة تسحبها من عرين الموت وتأخذها إلى مكان الأحلام .

جدي لا أصدق، هل البلدة لا زالت كما عهدتها .

نعم يا بنيتي، سنعيش معا للأبد في ضيعتنا، لا أحد يحق له أن يأخذها منا .

السراب الأرجواني

بدأ الحلم الدجال يقتات من لدن عمري الساذج، الذي يلاحق ترنحات أفكار خيالية، تتماوج في سراب أرجواني كأفعى تحتسي المياه من كبد الصحراء، لا زال القيظ يذبذب انعكاسات الاشعة على حبات الرمل الصهباء، ولا زال الصوت الصارخ يسدل ستائر الصمت الأبدي، ينخفض برتابة ويصطدم بجداري المتصدع، ينسل من الشقوق مقطع من لحن غريب، يطبق جفوني ويظلم أفق السقف الشاحب، يسحبني ذلك الظلام الحالك إلى هلوسات مجنونة، شيدت مبان فارعة يكاد طولها ينخر البدر السابح في السماء اللازوردية، ثم وحش جبار يسقط من العدم وينفث النيران بكثافة من فيه المسلح بأنياب مدببة، فتجمعت النيران في الهواء كأمواج من الحمم الوهاجة، أحرقت سعف النخيل والسابلة من رجال ونساء ملثمين، كانوا يستريحون ويأكلون ما وصلت إليه أياديهم من الثمار المتساقطة على أرض الجحيم .

أتى فجأة فارس الظلام من سحابة الغيث، فامتطى الوحش الفتاك بعد أن ألجمه بمهارة، وبدأ يتحكم فيه كدمية الماريونيت، حتى أضنى قوة ضخامته واستنفذ طاقته المخزنة، فأسقطه خاضعا خنوعا، لكنه لم يستطع كبح عينيه المشعشعتين، فانبسطت منهما أشعة سينية أتلفت بصري وتوقفت القصة هناك .

فتحت عيناي المعمشتين على صوت أخي الصغير وهو يصرخ: سأشن عليك حربا ضروسا إذا لم تخضع لأوامري، أنا فارس الظلام الشاطر وأنت مجرد كتلة من البلادة والغباء، لا تستطيع تحطيم حجر صغير .

قمت من سريري الأرجواني، وألقيت بنظراتي على مشهدي المعتاد، كان أخي الصغير ينسج كل صباح قصة من قصصه الملحمية بألعابه المفضلة التي

تتكون من وحش ضـخم، بنايات، قوافل تسـتظل تحت سـعف النخيل، فارس أسـود وفتاة صـغيرة، ربما لم يبدأ الجزء المتعلق بقصـتها بعد، لكنني كنت أرى نفسي دائما مكان تلك الفتاة الخائفة التي تراقب ساحة المعركة بصمت، حيث الابطال يقاتلون بجدارة كل من يوا صل في تدمير ركن ال سلام، اقتربت من أخي وسـألته: أليس لتلك الفتاة الصـغيرة أي دور في قصـتك الجميلة، هل سـتبقى مجرد متفرجة تراقب الحرب الطاحنة بصـمت. فأجابني بحماس شـديد يسـبر أغوار مقلتيه: ستكون القصة مفاجأة، لأنني سأضيف قطعة جديدة من ألعابي، وستبدأ قصتكما معا .

فقلت له: أرجوك أخبرني عن أي قطعة تتحدث؟.

غمزني بعينه اليسرى وأردف قائلا: هذا سر ولن أطلعك عليه مهما حدث، لكن ستكتشفينه في الوقت المناسب .

احتدمت أسـئلة كثيرة في قمة رأسي، بدأت تطرق باب الحيرة القابع في مملكة قلبي، ما هي القطعة الناقصة يا ترى كي تكتمل قصتي؟

ذهبت إلى الغابة المجاورة، وصـعدت السـلم الصـغير كي أصـل إلى بيت الشـجرة، فتحت الباب السـماوي، ودخلت إلى مسـتودع أحلامي المتخيلة، كان بيتي المفضـل هو تأشـيرة رحلاتي الفوضـوية المبعثرة على أوراقي الصـماء، كنت أعشـق الفوضى، وأبجل رائحة الخشـب المبلل بالرطوبة، فهو يدل على طراز العتاقة ذات الوقع الاصيل على النفوس التي تبحث على مصباح الجني الصدئ أو صندوق خ شبي رث في غابة نائية مهجورة، أو كهف مظلم يزخر بر سومات وأحاجي على جدرانه الخ شنة التي تنبعث منها أ صوات ملغزة، وأفكار ت صدح

في الأفق المرعب لكائنات مرت على وجه الأرض الكتومة التي تخزن في جوفها أسرارا تنتظر الفرج لترى الضوء الساطع، وتكشف عن كل الحكايات المدفونة تحت تراب النسيان .

تأملت من شرفتي الضيقة منظر الأغصان الناحلة، كانت براعم زهور اللوز تكسو لونها البني لتزيده تحفة وجمالا، حتى حط فجأة على مؤخرة الغصن، طائر قرمزي لم أشهد له مثيلا من قبل، فبدأ يتفنن في عزف شجن غريب أشبه بموسيقى القصص الأسطورية، سرحت في بريق ريشه الأخاذ، حتى لامست مقامات الصوت طيات كياني، وانسحبت معها إلى عالمي الخرافي، بقيت أتأمله، ولا تكاد عيني تذهب عنه حتى شعر بمراقبتي له، خيم صمت مخيف، التفت الطائر بمنقاره الدقيق، ودقق في ملامح وجهي، ثم نشر أجنحته ليمشط الفضاء، مخلفا وراءه دخانا أحمر اللون، كأنما ألقى تعويذة على المكان، وتبخر في السماء .

برقت عيناي من الصدمة، لم أصدق ما حدث للتو، هل ما رأيته كان حقيقيا أم مجرد أحلام يقظة، هل كل الخيال الذي خزنته داخلي أصبح يتهيأ لي كهلوسات خارجية .

فتحت باب الشجرة العجوز ومططت قدماي محاولة الوصول إلى السلم، لكنه لم يكن في مكانه المعتاد، فقدماي لم تلامسا شيئا، حاولت النظر للأسفل متمسكة بجذع الشجرة، لكن ما رأيته صعقني أشد صعقة، أرض الغابة اختفت ولا شيء ظاهر سوى السحب العمياء التي تكسو أسفل الشجرة، بقيت صامدة ولم أبرح مكاني مخافة أن أسقط في العمق وتتكسر أشلائي، تشبثت بالجذع منتظرة حدوث معجزة، حتى سمعت صوتا شجيا مألوفا، ظهر لي فجأة

بريق أحمر يسبح وسط السحب القطنية، لم تتضح صورته المغطاة بالسحب بعد، إلى أن حلق ليرتفع في الأفق، فما كان ذلك الكائن العجيب سوى الطائر القرمزي، بعدما ازداد حجمه أضعافا، اتجه صوبي، وأمام عيناي المحملقتان بدهشة، خطفني على ظهره وطار بي إلى عالم أغرب ما يكون في الوجود، عالما لطالما شهدته أحلامي ولم تصدقه عيناي، عالم أخي الصغير، اخترق بي الطائر البنايات وأخذ يترنح في الفضاء، حط على نفس المكان الذي كنت أتأمل منه أحداث المعركة، بقيت محدقة في السماء أنتظر سقوط الوحش العدمي، لكن ما حدث أثار دهشتي بقوة، تبخرت البنايات كما اختفت كل الأشياء التي اعتدت رؤيتها من قوافل وأ شجار النخيل، تحول المكان إلى صحراء قاحلة، وإذا بي أنظر إلى نفسي- فقد تحولت إلى شخصية أخرى، ذات شعر ليلكي طويل، وقامة ممشوقة وعضلات بارزة على مستوى الذراعين، حتى ملابسي- تغيرت، وحل محلها ملابس جلدية سوداء، يدي اليمنى كانت ممسكة بدرع حديدي أزرق، وعلى ظهري حملت سيفا قاطعا لماعا .

وطأ الطائر الأحمر العملاق الأرض ووقف صامدا بجانبي، أخذ يتمحص المكان بعينيه الحادتين، وهو يبحث عن شيء ما بكل حيطة وحذر، حتى سقط فجأة من العدم ذلك الوحش الهائل، بدأ ينفث النيران صوبنا، احتميت بالدرع الواقي، تكومت على نفسي- وخبأت وجهي، فتلقى الدرع صفعة النيران عني، حتى احمر لونه مثل الجمر، بعدها حلق طائري نحو الفضاء وتركني وحدي أ صارع م صيري الحتمي، ظننت أنه خذلني، تجلدت أمام الوحش وا ستجمعت كل قواي، بحثت عن ملجأ كي أختفي عن الوجود، رأيت من بعيد واحة زرقاء اللون، ركضت بأقصى قوتي، لكن عندما وصلت إلى المكان تبين أنها كانت حية ضخمة رقطاء، تتلألأ تحت أشعة الشمس، فجأة أظلم بريقها شيء ضخم مر

من الأفق، رفعت رأسي في الـ سماء، اتـ ضح أن طائري عاد لكن هذه المرة لم يكن وحده، بل كان يمتطي على جناحيه الفارس الأســـود، قفز على الارض بمهارة، ثم وقف أمامي، بدأت أحدق في قناع وجهه الذي لا يبرز ســـوى عينيه اللامعتين، صرخت فيه: من أنت؟ فأزاح القناع عن وجهه، أشرقت في وجهي سعادة غامرة وصحت بقوة: أخي، هل أنت هو فارس الظلام؟

"أجل أيتها الغبية، بالمناســـبة تبدين مثل محاربة حقيقية، لقد لاق بك الزي كثيرا، لكنك ما زلت خائفة كما عهدتك ."

"لا لست بخائفة ."

"حسنا، فلنرى من الخائف، لتتحد قوانا معا كي نواجه ذلك الوحش الأبله ."

بدأت المنافســـة تشـــتد، اقترب الوحش وأخذ ينفث النيران، فتحولت الأفعى إلى كتلـة رمـاد وانفجرت في الهواء، امتطى الأخوان الطـائر العملاق، وبمنقاره الرفيع انهال على الوحش حتى أصـاب رأسـه بجرح غائر ونزيف حاد، في نفس اللحظة قفز أخوها من على جناحيه ليرتمي على الوحش، وألجمه من فـيه بقوة، ثم بقـيت تحملق بعينيـها وهي تـهدئ من روعـها، حتى تذكرت الســـيف الـقاطع الـذي تحمـله على ظهرها، قفزت هي الأخرى على الأرض، واسـتلت السـيف من غمده، رفعته إلى السـماء، مع لمعان اشـعة الشـمس على قمته المدببة، صوبت ضربتها القاضية على عنقه حتى أزاحت رأسه عن جسده، مع تصفيقات أخيها المتلاحقة، قالت له: ألم أعد الأخت الخائفة الآن؟ "

"بل أصبحت بطلتي القوية".

استفاقت لحظتها ووجدت نفسها نائمة على أوراقها البيضاء، أطلت من الشرفة الصغيرة، لم تجد شيئا، كان مشهدها المعتاد، فتحت الباب السماوي ونزلت السلم، وهي في طريقها نحو البيت، إذا بشخص أفزعها بعد أن شد يدها، صرخت في وجهه: لقد أفزعتني، هل تريد قتلي؟ أجابها: أختي البطلة، دمت الفارسة السوداء القوية، القصة كانت أجمل عندما اتحدت قوانا معا. فغمزها ومضى في طريقه تاركا إياها في صدمة كبيرة، وهي تخاطب نفسها كالمجانين: ماذا حدث؟ هل فعلا لم يكن ذلك حلما؟ هل الأرض أنبتت أسطورة من رحمها؟ أين ذلك الطائر العملاق؟ أين؟ أين؟ فبدأت تركض عسى أن تلحق أخاها لتستطلع منه الحقائق، حتى استوقفها خط أحمر يلمع في السماء، ابتسمت قائلة: حقا الأسطورة تسكن الطفل داخلنا، تبدأ حلما وتتحول إلى واقع في اللحظة المناسبة، فلنكن على استعداد دائم، ونتحدى مخاوفنا كي لا نتحول إلى كتلة رماد ونتبخر .

شبح الموت

حجرة ظلماء قتلت فتيلة الحياة العقيمة، اندثرت آخر لفحة روح بعدما تجمدت في ركن القذارة، واستكانت لطغيان شبك خيوطه على نافذة الحلم التي شتتت من ثغرات الأمل نور الحرية المقيدة، فامتقعت سحنة البريق كلؤلؤة اسودت في قلب النيران، احترقت حتى تفحمت واستحالت رمادا، كان منفردا بأفكاره السقيمة، عابثا على وتر الأغلال، يترنح جيئة وذهابا، مترعا بالضجر المعتوه والجنون البائس، كان الأمل يستيقظ في نفسه عاجزا خنوعا، يتضرع بجبن إلى ذلك الصعلوك المفتول الذراعين كما لو أنه كان صانع القدر، يتربص بعينيه الثاقبتين اللتان تخترقان شبكية المقلتين لتطفئهما، بعدما تلقى صفعة الرفض عرج إلى دائرة الشيطان اللعوب، كانت دائرة مدماة تقطر دما حين يقترب أجيج الشيطان الظمآن ليتشرب النزيف الأجوف، وينتشي من عصارة الدماء، ينتظر في القيظ لتتقدم إليه نيئا طالبا الدفء، فيحولك إلى عشاء باذخ تعبق منه رائحة المشويات النجسة، قد تخضر من التعفن وتنبثق منها الديدان أفواجا .

قرحات الماضي كانت تعرقل سيره نحو المستقبل، في حين رسم الحاضر حفرا ملغومة ودروبا مفخخة، أسقطته في حضيض السراب بين حضن الموت المسكوك الذي اقترن به مربتا على كتفه دون أن يفهمه أو يستوعب ما يقوله، رغم ذلك يأمل أن يجد صوته الطريق نحو مسمعه، وهو يهذي مهسترا، هل للموت لغة تواصل أخرى خارجة عن نطاق المألوف، هل لديه آذان مثلنا أم لديه شيء آخر، ولماذا الموت يشفق علي، هل حالتي يرثى لها لدرجة أنه لا يريد أن يأخذني، بل بأية وسيلة يجب علي أن أخاطبه وأفسر له أن الموت هو خلاصي الوحيد، هو دار النسيان، هو الحرية المطلقة نحو الأفق المغادر بلا رجعة .

استل من رزمة سوداء قذرة كبسولة مهدئات كاذبة، ومررها إلى ثغره المتشقق الذي تآكل بالأدوية المتأكسدة، بعد أن بلع ريقه الملتصق بمؤخرة لسانه، تزعزعت حنجرته، كأن صقيع الموسكو اكتسح أطرافها عندما فتح مجرى المياه رمق صحراء القحط، لكن سرعان ما ا ضمحلت المياه بفعل حر الشيطان، أي حياة هذه حين تكون حياة البؤساء والمشردين أفضل مني، أيعقل أن الموت حتى يرحم ضعفي ويلاطفني، يؤنس عتمة أيامي بنور قد جلبه من الجنة، لا يريد أن يأخذني، لربما سيظن أنني سأتأذى أكثر مما أعيشه الآن، أيعقل هذا؟ هل الموت أشد وطأة من حياتي هذه؟ يا للسخرية .

أخذ يكسر أشتاتا من العيدان المستهجنة، وهو يحاول فركها ببعضها ليستيقظ الأمل العانس بعدما جثم على ضفة الركود والانهيار، وعمر طويلا ووحيدا بلا تناسل ولا تكاثر، ترحما على روح الفقيد مفتول العضلات، كانت الصورة من بقايا الماضي المشرق، الذي كلما اقترب من أشلاء شبابه المنطفئ ازداد ألمه وهو يتأمل قسوة المشهد الذي لا يحتمله قلبه الضعيف، ويبدأ بسرد الذكريات العابرة في الزهو والترف .

كان ذو العضلات وسيما صلب العزيمة والإرادة، يخاتل النساء ولا يلتفت للوراء، يستقبل كل يوم زهرة جديدة وهو في طريقه نحو رحلة القنص، ويمتص رحيقها ليخلف وراءه زهرة ذابلة ناحلة، كان يبدع في زخرفة الغزل، ليتجرد من ثياب الخجل، والزمان يعدد أيامه بعددهن بلا وجل.

كان الغرور يقتل حسن وجمالية ما يحيط به، ويسخر من أصدقاءه الذين تزوجوا وانشغلوا بزوجاتهم وأبنائهم، يردد على مسمعهم الاستهتار بحديثهم ويستخف بحياتهم المثيرة للشفقة أو كما كان يعتقد، لم يكن يعلم أن

ذلك اليوم سيأتي، حين اتجه صوب الغابة الكثيفة الأشجار التي تشمل كل أنواع الأطيار، فحمل بندقيته ليطلق رصاصاته الطائشة كي تسبر أغوار ما وصلت إليه، جلس على ضفاف النهر وهو ينظف بمياهه الحلوة دماء ضحاياه المريرة، لكن الشيء الذي لم يكن في الحسبان هو ذلك الإنذار الأخير، كانت أسراب الطيور تفر من الاشجار التي أمامه، وكأن شيئا مخيفا يتقدم نحوه، في ذلك الوقت نفذت ذخائر بندقيته وما تبقى سوى عضلاته المخلصة، نهض من ركنه وهو يترقب زحف تلك الدابة المهيبة، حتى أطل رأس ضخم من وراء الأشجار يمشي بخطى بطيئة، تكهرب شعره من شدة الفزع، وجمد الدم في شرايينه حين أبصر أن القادم كان أسدا، بقي هامدا في مكانه، وما ان اهتزت الأرض بالزئير المزلزل، حتى صدح في الأرجاء صوت حوافر الحصان، مع صياح نسائي آمر، اقتربت منه بحصانها وصرخت: هيا بسرعة امتط الحصان حالا، فأنت لا تريد أن تتحول إلى وجبة غداء. مدت يديها وجذبته بخفة، فقفز على صهوة الحصان، وهو لا يدري ما حدث في ذلك الوقت أحس بشيء رهيب يحدث داخل جسمه، كان ذلك الشيء الوحيد الذي يخاف منه أكثر من أي قوة على وجه الأرض، انه داء الحب، كانت عيناها السماويتين أول ما سحره وأذ ساه كل العيون التي جابها، وشعرها الأشقر المتماوج ذكره بدفء أشعة الشمس.

انطلق الحصان بسرعة الصاروخ وخلف وراءه ذيلا من غبار، والاسد يركض وراءهم بشراسة حتى خانته قواه وتلاشى وسط السحاب .

وصلا إلى شجرة بمرتفعات الغيلان ذات الفروع المتشعبة، كأنها أذرع هائلة تود أن تفتك بهما، فتنفس الصعداء وأسند رأسه على صخرة ملساء، سابح في عينيها باستسلام، سارعت تنظر إليه بصمت وكأنها ترى الفراغ، أراد أن

يطيل النظر إليها لكنه خاف من أن ينكشـــف أمره، فخطف بصرـــه باتجاه السماء، عندها حاول أن يحرك ذلك السكون المربك وقال لها: لقد أنقذت حياتي في الوقت المناسب، فما عساي أفعل لأرد لك الجميل .

أجابته بكل برود: فقط لا تقع في غرامي، هذا هو المعروف الذي بإمكانك أن تفعله من أجلي.

"هاهاها، أنت مغرورة جدا، وواثقة من نفسك لكن بزيادة عن اللزوم ."

"اســـمع يا هذا، أنا أعلم أن أي فتاة من الممكن أن تحصـــل عليها بألاعيبك، وأمثالك لا يقعون في الحب، ولا يعرفون معنى الالتزام، ولن يحســـوا أبدا بذلك الشـــعور المقدس، أنا أنقذتك فقط لهدف نبيل، لهذا لا تحاول معي لأنني لا أصلح أبدا لمثل هذه العلاقة، فأنا لست نزوة عابرة، أو محطة استراحة، كظمت غيضيـــ قبل قليل لأنك كنت ترمقني بتلك النظرات محاولا التأثير علي، لكنني لست طفلة، أرجو المعذرة، سأغادر حالا، دمت سالما ."

امتطت حـصانها بمهارة وتبخرت و سط أعا صير من غبار، بقي مـصدوما يحلق بعينيه في الفراغ، وبدأ يدرك ذلك الاحســـاس الذي يخلفه في زهراته من دون أي اعتبار أو شـــفقة، أمضىـــ الليل كله وهو يحاول طرد التفكير بها، لكن عينيها اســـتحوذت عقله وكل قلبه، أصـــبح يسرـــح في جمالها الآسر كالمجنون الولهان، لم يكن يظن أنه ســـيصـــبح عليلا بســـبب الحب، لأول مرة أحس أنه مســـتعد للصـــدق والاخلاص في علاقة حب جدية، بعدما كان مغرورا ومتشـــبثا بعاداته التي كان يصـــفها بالحياة المثالية، أصـــبح أســـير العادات التي كان ينظر إليها باحتقار ومذلة وتخلف، حيث أصابه الخضوع لسلطان عينيها .

حملته الأيام مرة إلى ســـوق الباعة المتجولين، أخذ يتبضـــع على قدر حاجته، ثم خطف بصره إحساس غريب حينما مرت بجانبه، ميزها من عينيها، لأنها كانت ملثمة الوجه وامرأة غامضـــة وســـط مجموعة من النســـوة اللاتي يلتحفن الأسود، تتبعها من بعيد بخطى خفية من دون أن تلاحظ وجوده، حتى وصـــلت إلى زقاق ضـــيق ومرت بالقرب من مجموعة من المتســـكعين الأنذال، وانطلقت التصفيرات من أفواههم، تقدموا نحوها وأبرزوا عن أنيابهم كالذئاب، بدأوا بانتزاع وشـــاحها الذي لثمته على وجهها، والآخرون يجذبونها من ذراعها، حتى صدم الجميع بصرخة قوية صدحت من ذو العضلات، وأسرع بخطواته الهجومية الثائرة بكل حنق وغضـــب، حتى انفجرت عروق صـــدغه واحمرت عيناه بحر السعير، قبض على ياقة قائدهم وأوسعه ضربا مبرحا حتى رماه على الأرض بشـــدة، واســـتعمل كل مهاراته القتالية وألقى بهم على الأرض، بعد أن أضـــنى كل طاقاتهم وأنهكهم أشـــد إنهاك فروا هاربين، بعدها حول نظره إليها، وقد كانت متكومة على نفسها وفي حالة من الهلع، تبدو في غاية الشحوب كما لو أنها جثة تذوقت عذاب الجحيم، أمســـك بيدها وخاطبها بهدوء: هل تذكرينني، لقد أنقذت حياتي، وقلت لك ماذا ســـأفعل لأرد لك الجميل، وها قد جاء هذا اليوم، أنا ذاهب الآن، رافقتك السلامة .

"لكن أرجوك انتظر، أنقذني، إنني حقا بائســـة، وآســـفة على معاملتي الجافة لك ."

رق قلبه لحالها وقال لها: حسنا ما القصة؟ وكيف يمكنني مساعدتك؟

"استرني في مكان آمن، واحرسني، وأنا سأدفع لك مقابل ذلك ."

"ماذا ستدفعين في المقابل؟"

"بضعة نقود ادخرتها من عملي كمزارعة ."

"هل يمكنني أن أعرف ما القصة؟"

"نعم من حقك أن تعرف القصة كاملة ."

"حسنا كلي آذان صاغية ".

"لقد نشـأت في أسرة كبيرة، وكنا نعد من الطبقات المخملية، انشـغل أبي بجمع الأموال الطائلة، وفي كل يوم يأخذ حصـــة من النقود ويبذرها في القمار، يعود مطأطأ الرأس تفوح منه رائحة الخمور، هو يصرخ كالمجانين: لقد خسرت لكنني سأفوز في الغد. تكرر ذلك أياما وأياما، وثروتنا بدأت تتقلص شيئا فشيئا، حتى انجرفنا معه في تســـديد الديون، أصـــبحنا مديونين بالكثير، فأخبرنا ذات يوم صـديق لأبي أن الشـخص الوحيد الذي بإمكانه أن يلتجئ إليه هو رئيس المافيا، الرجل الخطير ذو النفوذ الكبير، وفعلا ســـاعدنا كثيرا على تجاوز أزمتنا المالية وتسديد الديون، استضفناه في منزلنا، وما إن رآني، حتى بدأ يوشوش لأبي بكلام مريب .

كنت جالســـة في غرفتي، ســـاهية بأفكاري، فدخل أبي وتقدم نحوي بابتسـامة باردة، وخاطبني بنظرات مرتاعة، رأيت ظلال الجبن والخنوع ترتسـم وراء حدقتي عينيه، بعدها أخبرني بالاتفاقية التي أجراها مع رئيس المافيا، أي إذا قبلت عرض الزواج به، فلن ندفع سـنتيما على كل الديون التي سـددها من أجلنا، تفجرت أوتار صـدغي، وتوهجت عيناي بشرـارة الحنق والغيظ، صرخت في وجهه: أتبيع ابنتك لذلك العجوز مقابل المال؟ هل المال أعمى عينيك لهذه

الدرجة؟ هناك طرق عديدة لتســـديد الدين، لكن ليس بزواجي به، لن أتزوج رجلا يقوم بالأعمال القذرة مثله، ألست خائفا على ابنتك من رجل خطير مثله.

ضخ الدم في رأسه، وشد بيديه المرتعشتين على ياقتي، حتى أيقظ حس الدمار داخلي، كأنه غير مســتعد للاقتناع بالرفض، عندما رأيت في عينيه الجدية والصرامة في مسألة الزواج، كأنما ذلك الرجل دس له السم في شراييه حين حدثه عن الأموال، لأن أبي لطالما رأى أن المال هو وســيلة الارتقاء وتحقيق جميع الأحلام، ويبقى الحب مجرد وهم زائف سيتبخر بعد وقت وجيز، تجهم وجهه وخاطبني بحشرجة عنيفة: ذلك العجوز أفضل لك من مراهق طائش، أتفهمين؟ سيحبك وسيحقق لك أي شيء تتمنين الحصول عليه، ستعيشين كالأميرات، أنت كذلك يجب عليك أن تردي لنا ولو جزءا من صنيعنا، فأنت منذ نعومة أظافرك، حرصـــنا على تنشـــئتك ولم يرفض لك طلب يومها، كنت في راحة تامة، وبلا مسـؤولية أو اهتمام، لقد فعلنا لك الكثير، لكننا الآن سـقطنا في شـباك الأزمات والديون، ألا تستطيعين فقط أن تفكي عنا ولو جزءا من تلك الخيوط المشبوكة، فهل سـتدوسـين علينا وتتركينا هناك، بعد كل التضـحيات التي قدمناها لأجلك، أهذا يكون جزاءنا .

"لكن أبي، بإمكاني مساعدتكم بوسيلة أخرى، كأن أحصل على وظيفة مرموقة ."

"لا زلت مصـــممة على قرارك، أتعصـــين أوامري؟ إن لم تنفذي لي طلبي الأول والأخير، فأنت خارج عتبة رحمتي، ســـأتبرأ من رابطة الدم التي تجمعني بك، استعدي من الآن لحزم حقائبك وارحلي ."

نطق أبي كلماته، لكنه لم يكن يعني ذلك، بل فقط كتهديد لكي أقتنع وأنفذ طلبه، ولم يخطر على باله فعلا أنني سأرحل تلك الليلة متخفية، وأشق الظلمات بحصاني وحيدة مكسورة الخاطر، لا أعرف إلى أي مستقر ستوصلني إليه قدماي، حتى وصلت إلى كوخ مهجور، وهناك اختبأت فيه .

مضت الأيام على هذه الحال، كنت ذات يوم أقطف الفواكه البرية، ورأيتك تجلس على ضفاف الوادي، أنقذتك من الأسد، لكن حين عدت إلى البيت الحقير، وجدت كل أشيائي في حالة فوضى، من ملابسي التي كانت ملقاة في كل ركن من أركان البيت، إلى كل الأغطية والمفروشات المبعثرة على الأرض، اختلطت علي الأمور والحيرة تقتل رأسي، شعرت بالدنيا تدور من حولي. لو كان اللصوص من فعلوا ذلك، فلم لم يسرقوا نقودي ومجوهراتي الثمينة، بدا الأمر مثيرا للريبة والشك، جالت عيناي الأرض حتى صعقت لهول المشهد الذي كنت خائفة منه أن يتحقق يوما، فكان ظني في محله، كانت صورة أبي وأمي مقيدين ويبدوان في حالة يرثى لها، حملت بيداي المرتجفتين تلك الصورة وأنا أمشطها بأناملي، وأتحسس وجهي أبي وأمي المخذولين التعيسين، قلبت الصورة على ظهرها، فرأيت رسالة مكتوبة بخط أحمر عريض:" إذا أتيت إلي برغبتك ووافقت على طلبي سأتناسى كل شيء، أما إذا رفضت فسأضع حدا لحياتيهما". وقعت الكلمات الأخيرة وقع الطعنات على قلبي المرهف، فقدت روحي منذ تلك اللحظة، لم أظن أن الأمور ستصل إلى هذا الحد، لقد طفح الكيل، وبالفعل ذهبت إليه مطأطأة الرأس، يائسة منهزمة ومشمئزة من نفسي- وقدري، ألعن اليوم الذي سود كل أحلامي، أحسست ببخس قيمتي حين تم بيعي بحفنة من الأموال، لم أحس بمقوماتي الإنسانية، كأنما أصبحت شيئا من الأشياء يباع ويشترى، تجردت من حريتي واحترامي، وقلبي وعقلي، فاستسلمت لمصيري

الحتمي، لوجه والداي اللذان قدما المستحيل من أجلي، فأعتقت رقبتيهما، وأعلن موعد حدادي أقصد زفافي، كان الوقت يمر بسرعة، وأنا أفكر في حيلة تخلصني من هذه الورطة الكبيرة، حيث اعتبرت موعد زفافي هو تاريخ وفاتي .

قررت أن أشرب سائلا غريبا، هو عبارة عن سم زائف، يستطيع أن يحول جسمك إلى جثة لا حياة فيها، لكنك تستطيع استرجاع حياتك إن حالفك الحظ حقا، فستنجو من تلك الورطة حين يخالون أنك ميتة لا محالة، سيبرد جسمك ويشحب وجهك، وستكتم جميع أعضائك الحيوية، بعدها سيودعونك في تابوت مغلق، كنت في غرفتي والدمع ينهمر من عيناي كسيل جارف، تذكرت أن لدي فقط أربع ساعات لأستيقظ، استجمعت قواي وناديت أختي التي لا يمكنني أن أناديها بخادمتي، وعلى خادمي المخلص الوفي، أخبرتهم بالحقيقة، وطلبت منهم أن يحرسوا جسدي حتى أستيقظ، ويقومون هم بدفني وكأنني ودعت العالم، ثم بعد رحيل الجميع، ينتشلونني من رحم التراب، حية ترزق، وهذا ما تحقق فعلا، نجحت الخطة، استيقظت وسط الظلام هلعة مرتابة، لكنني حاولت أن أهدأ قليلا، حتى أتى الفرج وفتح عني الغطاء، كانوا بالفعل قد أوفوا بكلمتهم، وأخبرتهم أن يكتموا السر الراقد في هذا القبر، وأن لا يكشف الغطاء، وأن لا يتحدثوا عن ما حدث في هذه الليلة حتى فيما بينهم، لأن للجدران آذان، ودعتهم والدمع يترقرق من عيناي كنار حارة تنسكب على صدري، وتحرق قلبي، مضيت في طريق الغربة نحو المجهول، تحت رحمة الوحوش التي تسكن الغابة، تمنيت حينها أن أعود إلى أمي وأبي المسكينين، لكنني لم أستطع ذلك، كانت العزلة تقودني للجنون والحزن الشديد الذي أظلم وهج روحي القانطة، فوجئت ذات يوم حين أتى إلي خادمي وهو شاحب يلهث من شدة الهلع، لأنني مسبقا أخبرتهما بمكاني حتى أتلقى منهما كل الأخبار الصغيرة والكبيرة، انهار

أمامي وهو يصرخ بكل قوته، لقد تدمرنا، تحطمنا، ولم يبق لنا شيء، أحدهم وشى بحيلتك المدبرة في تلك الليلة، وكشف عن سرك المدفون، لقد قام جيش المافيا بالاستلاء على أراضيكم وكل ممتلكاتكم، وقتل أباك وأمك فور علم رئيسهم بالأمر، ثم أرسل جيشه للبحث عنك، وهو عازم على الزواج منك رغما عنك .

تخدرت أحاسيسي، وتسمر الدمع بين جفوني، كأنه يعلم هول ما سيراه إن خرج إلى عالم متوحش قد يلتهمه بلا شفقة ولا رحمة، تلاشت الرؤيا عن ناظري، بعدها لم أعد أستشعر بوجود شيء حتى استفقت وفتحت عيناي الممتقعتين الذابلتين، كان كل شيء ساكنا كأنني دخلت إلى عالم الأموات، حتى خادمي رأيته جالسا بلا حراك، وقد روعني منظر عالمي السوداوي، تمنيت الموت على هذه الحياة البائسة التي تقتلني في كل رفة عين، في كل استيقاظ من حلم جميل، كان كل يوم يتكرر علي، وأنني لا زلت داخل ذلك التابوت، ولم يفتحه أحد، لكنني أستيقظ فجأة لأتذكر أنني سأتعذب ليوم آخر، وأحترق حية في ويلات الحياة .

مضت الأيام تلو الأيام، وأنا أتنكر بزي يخفي ملامحي، حتى لا يتعرف علي أحد من أعوانه، حتى جاء اليوم الذي أنقذتني فيه، رغم أنني كنت أنتظر طعنة خنجر كي أتخلص من كل هذه المعاناة ."

ترقرق الدمع من عينيه، وهو يفكر مليا في طريقة لإخراجها من كابوسها، مسد على كتفها برفق، وقال لها: تعازي لك، إن الحياة كانت قاسية جدا عليك، لكن الآن يجب أن تتجندي بسلاح القوة، فلم أعهدك خائفة هكذا،

كنت دائما في مخيلتي تلك الفتاة المشرقة التي تتحدى الصعاب وهي ممتطية صهوة حصانها، الناهية الآمرة، ذات القلب الحديدي، وتتسم بروح الإنسانية .

صمت فجأة وهو يتأمل عينيها الذابلتين ووجنتيها المتوردتين، كان المشهد كافيا لسجن روحها بين أضلعه، و حبس أنفاسها المرتجفة بين طيات قلبه، حتما قرر أن يخبئها تحت جناحيه، ويشدد حراستها، تمسك بها كما الغريق الذي يتمسك بطوق النجاة، أخذها معه إلى مسكنه الحقير الذي يقبع في تلك الغابة حيث قدر لهم ذلك اللقاء الأول الغريب، وبسرعة تأقلمت مع حياتها الجديدة التي لم تعتد عيشها، وبدأت جراحها تندمل رويدا رويدا، وأخذ الحسن والجمال يشرق بين طيات ملامحها من جديد، وتمضي الأيام بينهما لحظات بل دقائق معدودة، وقد ألف وجودها والرائحة الشهية التي تعبق من منزله، فور عودته من رحلة القنص، كان السرور يتدفق على أضلعه النابضة وهو يستقبل بكلتا يديه وجهها الساطع كالنجوم، يضرب بشعاعه شبكية عينيه، حتى يصيبه بالدوار، دوار الهيام.

حدث ذات يوم أن استيقظ من كابوس مرعب، وهم متثاقلا ليحمل بندقيته الحانقة وحقيبة ظهره الخضراء التي أعدتها له حبيبته، وتحتوي على الشطائر الكافية لرحلته المعتادة، سدد خطاه نحو البرية، وبعد انتهائه من عمله الكادح، جلس ليستريح على ضفة النهر، وهو يتذكر اللقاء الأول في ذلك المكان، كان صوت الأسد يراوده فجأة، فابتسم مستهترا، وهو يظن أن الذكريات ارتسمت كصورة حية في مخيلته، وما الزئير سوى جزء من تلك الذكريات، لكن حين أطل رأسه من بين الأشجار، أصابه الإغماء من هول المشهد، فرك عينيه كأنه غير مصدق ما يحدث، فقد كان حقا نفس الأسد في نفس المكان، ألقى

بنظره نحو التلال البعيدة، متضرـــعا بأمل أن يتصـــاعد الغبار بين حوافر ذلك الحصان، لكن للأسف لم تتكرر المعجزة، استسلم لمصيره الحتمي، أغمض عينيه وبدأ الدمع يتناثر على وجنتيه كاللآلئ، فاستلقى على الضفة منتظرا الوحش كي ينهش جسده الغض، لكن حدث ما لم يكن في الحسبان، أتى إليه الأسد كالحمل الوديع، فأ سند عليه رأ سه الهائل وا ستلقى بجانبه، لم يكن يـ صدق عينيه، حقا أصبحت الطبيعة غريبة، وكل شيء فيها أغرب، لا بد وأنه أسد وحيد يبحث عن صديق ليفرج عنه وحدته، أو يكون قد رأف لحاله عندما رآه متكوما على نفسه خانعا يائسا، فضمه الأسد إليه ليحسسه بالأمان، كأم حنون مع طفلها الرضيع، بعد لحظات مرت بقربه كوكبة من الخيول بسرـــعة الرياح، أخذ زئير الأســـد يصـــدح مزلزلا أرض البرية، حتى أخافه انفعال الأســـد، أخذ بندقيته على مهل وذهب بخفة مبتعدا عنه بحذر شـــديد، كي لا يفســـح المجال بأن يقوم بهجوم مضاد، وهو يجر خطواته نحو منزله، يكاد يجن من السعادة، لأنه لم يتحول إلى وجبة أسد دسمة، بدأ يسرع بخطواته متحمسا ليسرد تفاصيل مغامرته الفريدة على حبيبته، فور اقترابه، بدت له أدخنة هائلة تتصاعد من وراء الأشجار، حتى فرت أسراب من الطيور التي أخفت زرقة الســـماء، أحس بنوع من الخوف والارتباك، اختلج قلبه بين أضلعه، فتلك الأدخنة تنبعث من المكان الذي يسكن فيه، أخذ يقترب بخطوات مرتجفة، حتى اتضـــح له مصـــدر الدخان وتحققت مخاوفه، لأن هؤلاء السـفاحون المجرمون لن يتركوا زاوية أو شـبرا من الأرض إلا وبحثوا فيه، بدأ يحملق في منزله بإغماء، وكيانه يتزلزل على ضـــفاف العذاب، نعم لقد أخذوا حبيبته فعلا، ولم يتركوا الأمر عند هذا الحد، بل وأحرقوا منزله حتى استحال حطاما .

دخل إلى منزله المحموم، وبدأ يبحث وسط الخراب عن دليل أو أي شيء يتعلق بالفاعل، لأنه لن يترك الأمر يمر بسلام، سيقف أمام وجه أي شخص يتجرأ على أذية حبيبته وتدمير مسكنهما، حتى عثر فجأة على شيء يلمع وسط الظلام الحالك، كانت قلادة من ذهب قد سقطت من عنق أحدهم، موشومة بعلامات ورموز تتعلق بكنياتهم وأصولهم، وتفضح مكان مقره السري الذي تصدر منه مختلف الأعمال الصهيونية الفاسدة، تجند ببندقيته ثم حمل نفسه نحو البرية، حيث وقع بصره على آثار حوافر مرتسمة على الأرض، فتذكر حشد الأفراس التي لم يستطع تمييزها وسط الغبار الشديد، لكن القلادة التي بيده كانت الرمز السري ولغة التواصل التي تسمح لهم بالتعرف على بعضهم البعض، فقد كان الرئيس قد وهب قلادة لكل فرد من أعوانه كي لا يقتلوا بعضهم إذا التقوا في مكان أو زمان آخر .

شد رحاله نحو سلسلة من الجبال الشاهقة التي كانت من ضمن رموز القلادة، وحتما كانت تدل على مكان رئيس المافيا، فشق طريقه وسط الأشجار مخترقا عباب البرية، حتى وصل إلى بركة مياه بعدما خارت قواه وأنهكه العطش، بدأت أضلع سيقانه تترجرج، غسل وجهه وشرب حتى أغمي عليه، ارتمى على الأرض وهو يجول بعينيه في السماء، كأنه ينتظر حدوث معجزة، أحس بصوت قريب مألوف يصدر على مقربة منه، استفاق من مخيلاته وعاد إلى وعيه، فلمح مياه البركة تتحرك، وكأن دابة كبيرة تزلزل الأرض فترتعش منها كل الأشياء خوفا، حتى وقع بصره على ذلك الأسد الهائل، لكن هذه المرة كان يبدو على هيبته الهدوء والود، اقترب منه بخطوات متأنية، وهو يراقبه في بهتان وشرود شديدين، حتى وقف أمام وجهه صامدا شامخا، وأحنى رأسه الكبير نحو يديه الباردتين، منتظرا منه ملامسة صداقة وثقة، بدأ يفكر في المعجزة التي كان

بانتظارها، وهو يهمس متمتما: هل حقا نستطيع أن نشكل خصما فتاكا لا يستهان به، ولن تردعه قوة على هذه الأرض، هل من الممكن أن يكون هذا الوحش القاتل صديقا يستطيع مساعدتي على استرجاع حبيبتي، والانتقام من كل من سبب الدمار لها وقتل كل أحبابها، وخرب أحلامها، وسلب حريتها.

صعد على ظهر الأسد الذي سلك الطريق بخطى متأنية، وأمسك القلادة بيديه ووضعها على عنقه مخاطبا نفسه: بالتأكيد هذه القلادة هي السلاح الذي سينقذني منهم، سيعترفون بي كواحد منهم و سيثقون بي ثقة عمياء، لأنقذ حبيبتي من مخالب ذلك الذئب .

بدأ رحلته نحو الجبال، مخترقا عباب السفوح، حتى وصل إلى قمة الجبل الكبير، ولاحت له سلسلة الجبال على مقربة منه تنبعث منها الأدخنة، وأصوات تنم على وجود أشخاص هناك .

أسدل الليل ستائره وعم الصمت أرجاء المكان، تسلل على رؤوس الأقدام بعد أن ترك الأسد نائما قرب شجرة غامضة في غياهب الظلام، اقترب من موطنهم الذي كان عبارة عن مجمع من الخيام الهرمية الشكل المصطفة قرب اصطبلات الخيول الأصيلة، أخذ يمشي على مهل بخطوات مرتبكة وقلب مرتجف، حتى سمع طقطقة بندقية بعدما لامست مؤخرة رأسه، توسعت حدقتا عينيه وأصابه الرعب الشديد، فسمع صوتا مزلزلا تعقبه مجيء جنود آخرين: ارفع يديك واستدر ببطء لأرى وجهك، وأخبرني من الذي أرسلك ولأجل ماذا .

بلع ريقه بصعوبة واستدار بوجه مصفر وعينين واهيتين، فضبط أعصابه وتجلد في صـميمه لكي لا يشـككهم في أمره و لكي لا يظهر عليه أثر من الخوف أو الارتباك، فخاطبهم بصـــوت واثق، وهو يفكر في كلماته بدقة كي يبدأ بتنفيذ مكيدته المدبرة: هاهاها، هل هكذا تستقبلون الأعضاء الجدد في خليتكم؟ لقد أرسلني الرئيس إليكم اليوم من أجل مهمة صغيرة، وإن لم تصدقوا ذلك، فهذه القلادة لن تتيح لكم ولو فرصة ضئيلة للشك .

احتدمت النظرات بينهم ومرت دقيقة صـــمت، حتى وضـــع الجندي بندقيته جانبا، ومد يديه ليمحص بنظره إلى القلادة الذهبية، التي التمعت بين حدقتيه كزند من اللهب تحت سطوع البدر.

اختفى الشـــك الذي كان يســـاوره واطمأنوا إليه بعدما اختفت حدة النظرات التي ترمقه كالسهام السامة، فقال له بصوت هادئ: ماهي المهمة التي أرسلك من أجلها؟

فأجابه بعد تفكير سريع: لقد أرسلني من أجل أن أستطلع خبر تنفيذ مهمتكم التي كلفكم بها .

- ماذا تقصد بكلامك؟ عن أي مهمة تتحدث؟

- تلك الفتاة هل وجدتموها؟

- نعم، وهي تبيت الليلة في مكان مقفل مخافة أن تفر، منتظرين قدوم الرئيس بعد ثلاثة أيام كما وعد .

- أين هي؟

أجاب بسرعة من دون تفكير، لكنه تدارك الأمر بعدما حاول أن يخفي شحوب وجهه ونظراته الهلعة لكي لا يفضح أمره وتسير الخطة على ما يرام .

قال له الجندي بنظرة تساؤل: ألم يرسلك لاستطلاع خبر إيجادها؟ فلم تسأل عن مكانها؟

- لا لا، أقصـــد أنه يجب أن أتحقق من أمر وجودها، لأن الرئيس أمرني بذلك في مهمتي الأولى، فلا يجب علي أن أفسد الأمر وأخيب ظنه، سيطردني لا محالة، أرجو أن تتعاونوا معي .

طأطأ الجندي رأسه موافقا، وأشار إلى جنديين أن يقوما بمرافقته ليدلوه على الطريق، وبعد خطوات قليلة أزاح أحدهم صـــفيحة من فولاذ، فتبين أنه كان تحتها باب أرضي لن يعرف أحد بوجوده ولو فتش كل بقاع الأرض، بعدها أخرج الجندي مفتاحا من ســـترته وفتح القفل المعلق بين فتحة الباب، ســـحب الباب ببطء، فاندفع صرير يصـــم الآذان، انفتح الباب الذي كان يخفي تحته سلما يؤدي إلى الدور السفلي، أخذ أحد الجنود قنديلا معلقا على غصن شجرة قريبة وقام بإشعاله، فمده إليه قائلا: ستحتاجه، فالظلام دامس هناك. أمسك القنديل وهو يحاول إخفاء ملامحه الهلعة تحت وهج النور الســـاطع من القنديل، ونزل الســـلم بكل حيطة وحذر، تقدم بخطوات مبعثرة لا تعرف أين تمشي وسط الظلام، كلما اقترب يسطع النور تدريجيا لينير مقدمة الطريق، أخذ يلتف ويدور بشـــعاع القنديل في كل ثنايا القبو، على حين غرة، فاجأته ضربة قوية على رأسه أفقدته الوعي، وتلاشى الشعاع عن عينيه، بعدها سقط مغمى عليه .

أفاق على دوار شديد في رأسه، واتضح له شخص يحمل القنديل، حتى تناهى إلى سمعه ذلك الصوت الذي اكتسح طيات قلبه واستعمر تفكيره، بدأت تخاطبه والرجفة تقطه صـــوتها: لقد كنت أظن أنك من أحد الجنود، أخبرني ما الذي تفعله معهم؟ وكيف أتوا بك إلى هنا؟ شششش قاطعها بإشارة من سبابته، سيسمعون حسيسك، إنهم بالقرب منا .

التمعت عيناه وتهللت أســـاريره عند رؤية عينيها الســـماويتين اللتان أشرقتا تحت وهج القنديل، كشـــمس ســـطعت في كبد الســـماء، أدفأت قلبه وأراحت كيانه، داعب وجهها كل طيات أنفاسه، حتى جاء صوت قوي من أعلى الســـلم قاطع تلك اللحظة الهادئة: هل حدث شيء؟ هل كل شيء على ما يرام؟ أجاب بتوتر شديد: نعم..نعم .

- إذا كان كذلك، فلم كل هذا التأخير؟ هيا بسرعة، نريد أن نقفل الباب في الحال .

قام من مكانه وهمس لها وهي تحملق فيه بنظرات الحيرة والارتباك: ســأوضــح لك كل شيء، أرجو أن تنتظريني عند الســلم لنهرب ســويا. طأطأت برأســـها موافقة، عاد أدراجه نحو الســـلم، فصـــعد الدرج وتراءى له الجنديان يطلان من أعلى الســـلم، ومترقبان قدومه، فقاموا بمرافقته إلى مجمع الخيام، وأعدوا له لوازم المبيت من أفرشة وثياب نوم .

بعد انقطاع الضجيج وخلو المكان من الحراس، خرج من خيمته متسللا مع انبثاق نور الفجر، وذهب بخفة ليبحث عن صـــاحب المفتاح، بحث خيمة خيمة، حتى وجده، كان الرجل ذو الجثة الضـخمة والسـحنة الحمراء، والشـعر

الأشـقر، ولج إلى الخيمة وسـمة الهلع تعلو وجهه، فتش في جيوب سرواله بكل حيطة وحذر، مخافة أن يســتشــعر وجوده، حتى لمح جزءا من شيء يلمع في الجيب الخلفي من السروال، أدار جسمه ببطء شديد، وانتشل المفتاح بأنامله المرتجفة، حمل حاله وعاد يشق طريقه وسط الغابة، لولا نور الفجر لما استطاع أن يبصر شيئا، حتى وصل إلى مكان حبيبته، أخذ القنديل وأناره، فأزاح صفيحة الفولاذ وهو يلتفت يمنة ويسرة بعينين غائرتين وسحنة ممتقعة، وهالات سوداء أحاطت بعينيه المحمرتين. فتح الباب وناداها هامســا، لكنه لم يتلق ردا، فنزل الدرجات الأولى من السلم، وإذا به يلمحها مسندة رأسها أسفل السلم ومسلمة نفسها للنوم، هاجت عواطفه وهو يراقبها مسحورا بنظرات كلها صدق ومحبة، باغتها عند ما مســد براحة يديه على كتفيها كي يوقظها، فتحت عينيها الســماويتين، وحين رأته أشرقت روحها واحمرت وجنتيها، فسرــى الدفء إلى جسمها من جديد.

تذكر أن الوقت يداهمهما، فأمسك يديها وصعدا السلم، فبعد أن أقفل الباب وأعاد الصــفيحة إلى مكانها، بدآ يركضــان بسرــعة جنونية نحو الغابة المكتظة الأشــجار، وكأن العيون تلاحقهم، والجواســيس يحدقون إليهم ليشــوا بخطة فرارهم .

وصـلا إلى المكان حيث يقبع صـديقه الأسـد، توقف يبحث عنه وحبيبته تراقبه مجعدة حاجبيها، وعلامة الاستفهام تعلو جبينها، حتى أطلق صفيرا رنانا، بدأت أوراق الأشجار ترتجف، فتناهى إلى سمعه حنحنة يتبعها زئير قوي، ظهر الأسد الجبار من وسط الأشجار، انتابها هلع شديد وهي تحدق إليه غير مصدقة ما يحدث، أخذ يهدئ من روعها، وحكى لها عن كل شيء، وعن صديقه الوفي .

سدد خطواته نحو الأسد واحتضنه ملامسا فراءه، وجاءت هي الأخرى فمدت يديها إليه، وبدأت تلامسه وتلاطفه برقة. على حين غرة قام الأسد بحركة لا شعورية، انتفضت أذناه كأنه استشعر وجود شيء ليس على ما يرام، وقف شامخا وركز بعينيه على مكان واحد، فانبعثت أصوات من بعيد مع صهيل أحصنة، بدأت حبيبته تصرخ: لقد انكشف أمرنا .

- لا تخافي وثقي بي، لنمتط الأسد فورا، وتمسكي به جيدا فسرعته لا تضاهى.

أطلق الأسد دوي زئيره وتلاشى وسط الأشجار، أقبل الجنود يهرولون بأحصنتهم، وقد رأوا فجأة شبح كائن كبير، أخذوا ينهالون بالسياط على أحصنتهم بقوة، حتى حاصروا المكان، وتراءى لهم الأسد شامخا بعدما أضنى التعب جهوده وهو يحملهما على ظهره، فزمجر بقوة حتى أخاف كل الأحصنة، التي قفزت من مكانها على قوائمها الخلفية، تمسك الجنود بالأحزمة حتى لا يسقطوا من موضعهم، حملوا كل بندقياتهم وقاموا بتصويبها باتجاه الاسد، فأطلقوا رصاصاتهم المتلاحقة، حتى صرخ صرخته الأخيرة وتهاوى مغشى عليه، فأسقطهما من على ظهره، ولم يعد هناك حاجز يحميهما من الأذى، تسمرا مكانيهما وهما يحدقان في بعضهما معلنان انتهاء أمرهما بنظرات خنوع وقهر، حملوهما عنوة على أحصنتهم وعادوا أدراجهم، وفي الطريق لمحوا رجلا ينتظرهم، ضخم الجثة، وتقاسيم وجهه متجهمة، نطق أحد الجنود: رئيسنا، هل وصلت؟ أجابه بصوت أجش: ما الذي يحدث هنا؟ هل تقومون بنزهة؟

- لا يا سيدي. فأشار بسبابته إلى الحبيبين متمما كلامه: هذا الشاب خدعنا بأنه ينتمي إلينا، وقد قام بتهريب الفتاة معه .

احمرت عيون الرئيس، وأشار بيده، ففهموا قصده، وانسحب يتقدمهم بخطواته المتثاقلة .

قاموا بإدخال الحبيبين إلى مخبأ يبدو كزنزانة كريهة تنبعث منها أصوات الضحايا، هو المكان الذي كانوا يمارسون فيه كل طقوسهم الإجرامية المخزية، وتتواجد في قلب الزنزانة معدات التعذيب، كالمقصلة والكرسي الكهربائي وحبال المشنقة. سحبوا حبيبته وهموا بأخذها أمام عينيه، بدأ يتملص بين يديهم وهو يصرخ بكل ما أوتي من جهد، حتى أتته ضربة بشيء صلب، وفقد وعيه .

استفاق وهو مكبل اليدين، لمح الرئيس يجلس هو بدوره على الكرسي المقابل له، وبحمحمة تصدرت أرجاء الغرفة قال له: إذن أنت هو حبيبها، أنت من خبأتها عنا طول هذه المدة، أنا رئيس المافيا الذي بالتأكيد قد حدثتك عنه .

- أين هي؟ أين؟ إن لمستم شعرة منها ستندمون .

- هاهاها، ما الذي تستطيع فعله أمام جيشي الكبير، لا شيء، كلامك هذا يبرهن على أنك لا تعرفني جيدا، فما سنريده هو ما سيكون، شئت أم أبيت .

- ما الذي تريدونه الآن؟

- أنت تعلم، أريد أن أتزوج بها .

- ليس وأنا موجود.

- إذن أنت قلتها، فالحل واضح، إذا كنت ميتا فلن تستطيع أن تمنع زواجنا، أليس كذلك؟

- هي لا تريدك أنت، ولا تريد الزواج بك .

- لا يهمني ما تريده، بل ما أريده أنا، وكذلك فلا زلت مدينا لها .

- بل هي من تدين لك بكل تلك الأرواح التي نسفتها بين يديها .

- هل تعلم لم أبقيتك حيا حتى الآن؟

- لم؟

- لأنه يروقني اللعب بالضحايا قبل إنهاء حياتهم، فأنت ميت من الآن كن مطمئنا هاهاها.

- ليس قبل أن أضـــمن حريتها وأحررها من أسركم الذي ينغص عليها لذة الحياة.

صرخ الرئيس بأعلى صوته على جنوده: هيا أحضروها حالا .

تقدموا ودخلوا الغرفة ممســكين بها، وهي في حالة انهيار كبير، أجلســوها على كرسي، فخاطبها الرئيس: لديك خيارين، إما أن تقبلي الزواج بي، أو أن أنحر رأس حبيبك أمام عينيك وإن وافقت سأحرر رقبته ليمضي في حال سبيله .

فأجابته والدمع جمد بين جفنيها: أقســم لك إن لم تف بوعدك، ســأقتل نفسي بعد أن أجعلك تدفع ثمن تعذيبي، حرره أمام عيناي، وســـأقبل بك كجثة بلا روح، وأؤكد لك بأنك لن تحلم بأن تمتلك قلبي أو روحي، ســتعيش مع جســد ميت استكان لطغيانك وجبروتك .

- الأهم من ذلك سأ ستطيع أن أتأمل زرقة عينيك وألمس شعرك الذهبي. اقترب منها ملامسا شعرها، فبصقت في وجهه، لكنه لم يستطع كبح جماح نفسه ولكمها على وجهها، اندفع صـوت حبيبها وهو يلعنهم ويصرـخ فيهم، وعروقه تكاد تنفجر من صدغيه .

أتمم الرئيس كلامه: ماذا تنتظرون؟ هيا باشروا بمراسيم الزفاف .

أتى صـوتها يئن ويخرج متقطعا: فكوا عنه قيوده، وإلا فلن أقبل بك، وسـأقتل نفسي .

بإشارة من يد الرئيس، أمسك أحدهم سيفا، وبضربة قاضية قطع الحبال، وفك عنه وثاقه، صرخت عليه: أنت حر، اهرب بعيدا ولا تعد، امض في طريقك. لم يبرح مكانه، فقال له الرئيس: هل تريد من يساعدك في ذلك، حسنا .

بعينيه ألقى الأوامر، فأتى ثلاثة جنود وسـحبوه مكرها، عند باب الخروج، ألقوا به على الأرض، كانت هذه نهاية لقاءه بمحبوبته، بكى كثيرا في ليلة زفافها وكأنه يـشيع جنازتها، بعد سنوات، سمع بخبر وفاتها بـسبب الإنتحار، فاخترق الوهن عوده، وأكل المرض العضـال من جسـمه حتى أصـبح يتحرك بصـعوبة، وقد لجأ إلى بيت مهجور واختبأ فيه مع الجرذان والجدران الصـماء، اختبأ من إشراقة الشمس لأنها تذكره بشعرها، وزرقة السماء لأنها تذكره بعينيها.

حـسب نفـسه أنه مات، نعم إن جـسده ميت، وما المكان سوى نعـشه المظلم الذي لا يصله بصيص نور ولا دفء صوتها .

بعد سـنوات انبثقت رائحة كريهة من المكان، حيث اشـتكى سـكان المنطقة من ذلك، وأتى فريق من الشرطة لاستكشاف مصدر الرائحة، في حين تم

العثور على جثة متحللة على المياه الراكدة التي خلفتها المجاري، وقد كانت جثة خضراء تأكل منها الديدان والجرذان، بجانبها كبسولات مهدئات قد ذاب نصفها في المياه .

صوت لا زال يتردد بين الجدران بكلمات مبهمة، كأنها تريد أن تخرج عن صمت قاتل يفك أسر الجثة المسكينة، هل شهدت على موت طبيعي، أم على جريمة قتل بشعة؟

خيال أم واقع

قررت أن تنام تحت ضوء شمعة وهاجة، جعلت من ليلتها الألفية حفلة سـهر بطقوس رومانسـية دافئة، تركت رسـالتها المعطرة فوق منضـدة مؤثثة بقماش أحمر، وأطبقت جفونها لتنسـحب إلى ألوان طيفية هادئة من الأحلام الوردية التي نسجتها بأناملها البيضاء في عالم مشرق كالشمس، وشاسع كالسماء، ومتلألئ كالنجوم، كانت واهمة بلا حدود، رسـمت في ذهنها مواصـفات توأم روحها بمثالية، وحاكت له قصـص البطولة التي قرأتها في رواياتها الرومانسـية الخيالية التي لا تبث للواقع بأي صلة .

قد تقولون عنها مغفلة، لكنها كانت في منتهى السعادة بأحلامها الكبيرة التي حولت عالمها إلى فضاء تستطيع فيه رؤية كل الشخصيات التي سحرت بها بين السـطور، وحظيت كذلك بدورها في جزء من القصـة، وأبحرت نحو البحار السبعة وهي في مكانها، ألفت عالمها المتكوم على نفسه الذي يجود لها بذاكرة نجيبة الخيال، كانت أرضـها التي تسـتوطن كل أحلامها، آمالها، تصـوراتها، التي صنعت منها فتاة حالمة بالمثالية وكل ما يبعث السعادة، في عالم أبيض، ليست به ذرة دنس أو إثم.

فتحت عينيها، وحملت كتبها المدرسـية، ثم توجهت نحو عالم الدراسـة، كان كل شيء يبدو في غاية الجمال بالنسـبة لها، دخلت الفصـل في جو يسـوده المرح، لأول يوم دراسي لها في الثانوية، وكما تخيلت أن بداية عمر الزهور تزخر بالحياة الشبابية الواعدة الحافلة بالمغامرات الشيقة والطموح المثمر .

جلست بالصف الأول القريب من النافذة فرأته فجأة، توسعت حدقتا عينيها، وسرت قشـعريرة غريبة في أنحاء جسـمها، عبر صـوت دفين ينفخ في أذنيها، وقرعت طبول الملاحم أوتار قلبها، كأنها شـخصـية خرجت من روايتها

وأتت إلى عالم الواقع لتشاركها بداية أحداث شيقة، ومغامرات أسطورية ترتوي من السطور عبق الحروف .

جلس الشاب الأسطوري، صاحب النظرة الغامضة، أو كما وصفته في مخيلتها وجعلت منه تلك الشخصية التي تلبس زي المحاربين وتتدرع بذلك الحصن كي تنقذ محبوبتها من أذى الأشرار، وضعت يديها على وجنتيها، وبدأت تتأمله حالمة، رأته بذلك الزي، تخيلته الفارس النبيل صاحب النظرات الحادة، كان قلبها يرفرف بسعادة، وهي منسجمة مع خيالها حتى فاجأتها ضربة على رأسها، أفاقت من غيبوبتها، لتتفرس في وجه صديقة طفولتها التي أطلقت صوت ضحكاتها .

- هذا يكفي، ألم تسأمي بعد من تصرفاتك الطفولية؟

- ما بالك يا صديقتي، ما كل هذه الصرامة، هل اللعب مخصص للصغار فقط، اكبري أنت، أما أنا فلا زلت أريد أن ألعب وأمرح.

- آسفة فقط أتتني الضربة وقطعت علي شريط حلم جميل داخلي، كنت أتنسم منه عبق الحياة التي أريد أن أعيشها .

- أنا أسمعك، قولي، ما الذي يوقظ فيك كل هذا الشعور؟

- أما زلت تؤمنين بالمعجزات؟

- ماذا حصل؟ لم هذا السؤال المفاجئ؟

- أرجوك، لا تثيري الشك، فقط أنظري إلى ذلك الشاب صاحب الشعر الحريري ذو السترة الزرقاء .

- كم هو وسيم، هل تعرفينه؟

- لا، لا أعرفه ولا يعرفني، لكنني رأيت نسخة طبق الأصل له على غلاف روايتي المفضلة التي قرأتها عشرات المرات، فبطل الرواية له نفس ملامح وجهه .

- أين هي الرواية؟ هل أحضرتها معك؟

- لا، للأسف، لكنني بالتأكيد سأريك إياها لتتأكدي من الأمر .

- موافقة حبيبتي.

انتهى الدرس ورن الجرس، جلست الصديقتان تتجاذبان أطراف الحديث وهما يرمقان الشاب الوسيم صاحب النظرة الساحرة وهو يتحدث مع أصدقائه الجدد، فهامت في عينيه حتى أنها لم تلاحظ تحديقه إليها، التفتت إليها صديقتها عندما لم تتلق ردا على سؤالها، فقاطعت حبل أفكارها بضربة على كتفها، استفاقت من حلمها وتداركت متأخرة أنه افتضح أمرها، عندما شاهدتهم يتهامسون فيما بينهم، وأصوات الضحك الساخر تتعالى من أفواههم، كان الشاب يكشر عن أسنانه ويتباهى معدلا خصلات شعره المتساقطة على جبينه وهو يشير بإصبعه إليها ويتفوه بالكلام الغير المفهوم، والآخرون مغمى عليهم من الضحك، بدأ الدمع يخرج من عينيها، ومن دون أن تنطق بشيء، قامت من مكانها وهربت وهي تخبئ رأسها بين يديها من الإحراج، تبعتها صديقتها وهي تناديها بصوت عال، حتى أمسكتها وجذبتها نحوها .

- ماذا حدث لك يا عزيزتي، كوني قوية واستيقظي من حلمك، يجب أن تعلمي أن ذلك النذل ليست له أبدا علاقة بالشخصية المذكورة في الرواية، تلك

الموا صفات بريئة من حقيقة البشر، الكاتب هدفه بيع كتبه بثمن زهيد، لذلك فهو يصور لنا الحكاية بطريقة خيالية، ويبيع لنا الأحلام لأن معظمنا يتهرب من واقعه ولا يريد أن يقرأ شيئا يذكره بمرارته، وكذلك أنت حبيبتي، تعيشين الحياة التي تريدينها من الكتب، وحتى أنك ترغبين بشدة الالتقاء بشخصيتك المفضلة على أرض الواقع، لكنك تنصدمين بوجود شخصيات مطابقة المظاهر، لكنها تغدو سوداء مقفرة من الداخل، فلا تسببي الدمار لنفسك، هذا لا يليق بمفكرة مثقفة مثلك، فوجهه جميل لكن تعامله قبيح .

- سأمزق تلك الرواية وأحرق غلافها حتى يختفي وجهه من ذاكرتي .

- ما ذنب الرواية عزيزتي، وما ذنب ذلك الوجه إن كان يشبهه، فهو مختلف عنه في الجوهر، كان بطل الرواية وسيبقى ذلك الفارس المحارب ذو الوجه الوسيم، لأنه لو كان قبيح الشكل لما أحببته وانسجمت مع مغامراته الرومانسية، حيث في الخيال كل من يملك ذلك الوجه فهو البطل المخلص لمحبوبته، والشهم المحارب الذي ينطلق بفرسه مخترقا البراري، ويتسلق الجبال بذراعيه الصلبتين، كما يصور لنا الأشرار بوجوه مقيتة وجسم يثير الاشمئزاز، غير أن الواقع بعيد كل البعد عن تلك المواصفات، حيث المظهر هو آخر شيء يمكننا أن نحكم به على باطن الإنسان وجوهره، قد نجد شابا وسيما يتسكع في الحانات ويمارس أنجس الرذائل، بينما نجد شابا قبيحا بقلب أطيب من الفاكهة وأبيض من بريق النجوم. خذي حذرك عزيزتي، واقرئي فقط لتتثقفي، وليس لكي تعيشي الواقع كما تعيشينه في خيالك .

لغز الأرض

كانت الرســـوم الجدارية دافعا قويا لاســـتدراجها نحو علم الآثار، الذي تحول إلى هاجس فضول واستكشاف الخفايا والأسرار التي تسترها الأرض مخافة أن ينفضـــح أمر خطير به قد تنقلب موازين العلم، وتتأذى الأرض بكثرة النخر والتنقيب في جوفها، للعثور على المزيد من الاجابات عن تســـاؤلاتهم التي لا تنتهي ولن تنتهي .

كانت رئيسة فريق الاستكشاف والبحث عن الآثار العتيقة التي تركتها كائنات أشبه بالوهم، لم يدرك أحد شكلها إلى الآن .

قررت في مهمتها التالية تســـليط الشـــعاع على منطقة اســـتراتيجية لم تعرف مســـتقرا من طرف البشـــر أخذت أفكارا عنها ودونت ملاحظاتها في مفكرتها الصغيرة الذهبية ومضت قدما نحو مغامراتها الاستكشافية مع فريقها النجيب .

كانت منطقة خالية من أية حضـــارة ومســـتعمرة بشـــرية، ناهيك عن الحيوانات والطيور، هي المنطقة الوحيدة التي لم تتغير منذ بداية الحياة على وجه الأرض، لا تشـــوبها شـــائبة أثر من تراب العوالم الحاضرة لشـــدة وعورة الوصـــول إليها، لجبالها الفارعة الطول وكذلك لمختلف التداعيات والحكايات التي كانت تصورها في أسوأ تجلياتها، حتى أنها شاعت سمعتها إلى كل القرى المجاورة، وفاحت رائحة الرعب منها، حيث وثق على لسان الكثير من السكان الذين مروا بالصدفة قرب المنطقة، أنهم سمعوا دوي رياح عتيدة وصوت زوابع قوي، مع نحيب غريب يفجع القلوب ويروع الأرواح .

عم الضجيج في القرية، وتجمع الناس وهم ينظرون إلى السماء ملوحين بأياديهم، ولم تخل أية نافذة من وجه يطل في بهتان، محدقين إلى الســـماء نحو

ذلك الهيكل الضـخم الذي يخترق عباب الغيوم بسرـعته الفائقة مطلقا صـوتا أشبه بزمجرة البرق الذي يشق ظلمات السماء.

رسـمت طائرة الاسـتكشـاف على السـماء ذيلا من دخان، والذي كلما ابتعدت تبخر جزء من حده الآخر، لتبدو وكأنها تسـحب خيطا رفيعا بطول محدد.

حطت وأخيرا لتضـع بصـمتها الأولى على تلك المنطقة الغامضـة، نزلت رئيسـة فريق الاسـتكشـاف من الطائرة والحماس يباغت عينيها، حتى النسـيم يـصافح خـصلات شعرها ويداعب ثيابها الخفيفة الفـضفا ضة لتبدو بـسعادتها وهي تتراقص فوق جسمها النحيف .

بعدما بدأوا بتسـلق الجبال بمعداتهم لضـمان سـلامتهم من أخطار الانزلاق والسـقوط وهم يحاولون الصـعود إلى قمة الجبل لاح لهم على مقربة منهم كهف ضـخم يتربع على الصـخور الضـخمة الملسـاء، أثار فضـولهم وأيقظ حس التهور داخلهم، فغيروا وجهتهم نحوه، عندما وصـلوا إليه، بدا لهم أقرب من الخيال، فولجوا إليه ولم يتضح لهم شيء وسط العتمة، لكن غرابة الإحساس التي خالجتهم لا توصـف، ذلك السـكون الرهيب كان سـاحرا في نظرهم، فتح أحدهم حقيبة ظهره الضـخمة وأنار مصـباحه اليدوي، ليمسـح الظلام عن الجدران الحنطية، ويسرب إليها الشعاع الذي كشف عن كل الأسرار التي نامت طويلا وآن لها أن تسـتيقظ مجددا، كانت رسـومات كثيرة حفرت باحتراف من أنامل مجهولة، تتدفق كنوزا في عين رئيسـة الفريق، كانت من أنجح المغامرات التي قامت بها منذ بداية طريقها كعالمة آثار، أخذت آلة التصـوير وبدأت بالتقاط الصور لتلك الآثار التي كانت أقرب إلى الخرافات والأساطير، فجأة خرج

صوت ليس له تفسير من قلب الكهف، ودب الرعب في نفوسهم، أخذت الأرض تهتز من تحت أقدامهم، والصوت بدأ يرتفع، جمعوا أغراضهم والهلع يتملكهم، لكن بغفلة من أمرها نسيت آلة التصوير ملقاة هناك في غياهب الكهف، وفروا هاربين، يشـــقون أدراجهم نحو طريق العودة، غير قادرين على نســـيان أثر الصـــدمة التي خلفتها فيهم هذه الأرض الضـــارية، ركبوا الطائرة وأقلعت بهم مغادرة بلا عودة، لكنها بعد لحظات بدأت تهوى بهم وسط زوابع عاصفية من الغبار، أغشـت الرؤية عن أعينهم، وتبددت ملامح الوضـوح التي كانت تصـبغ زجاج النوافذ .

اســـتيقظوا في عالم لا يشـــبهه عالم، تغيرت صـــورة العالم المحيط بهم وتدرجات ألوانه، حتى السماء بدت أقرب، وحجم النجوم صار أكبر، قامت من مكانها حتى اصطدم رأسها بغصن شجرة، ونظرت إلى الأرض فلاحظت أنها أبعد من المعتاد، مدت ذراعيها، فصرخت بأعلى صـوتها الذي نشـب زوابع عاصـفية ودوي زلازل قوية على ســطح الأرض، صـعقت حين اكتشــفت أنها تحولت إلى وحش عملاق مغطى بشعر كثيف، أخذت تركض بخطواتها الفرسخية المتلاحقة، وهي في أهبة جنونها والتحول الذي لم يســـتوعبه عقلها، هل هو حقيقة أم خيال، هل لا زالت في ذروة حلم لم تســـتيقظ منه بعد، أين باقي الفريق؟ هل تحولوا هم كذلك إلى كائن عملاق، أم أن الطائرة أســـقطتهم في منطقة بعيدة فتاهوا عنها. اهتزت الأرض بأكملها ووقفت شـامخة حتى أصـبح الفراغ هو ما يسـبح تحت قدميها، تسـطح جدار هائل يناطح السـماء وتحول إلى زوبعة لن تضـاهي ضـخامتها أقوى العواصـف، لكنها بدأت تصـغر حتى تقلص حجمها، فانبعث من وســـط الغبار كائن بلون التراب يشـــبه نوعا ما الشرـغوف لكن

بنسخة مكبرة، يلثم رداءا سميكا بلون الوحل، فخاطبها بنبرة دفينة كلغة الأسرار والحكايات التي لم تكشفها المصابيح ولا تكنولوجيا الحضارة بعد :

أنا الأرض التي تريدون تدمير ما تبقى منها، وما كانت تفتخر به من كنوز لم تستطيعوا صنع مثيلها أو جزء منها، كنت أجمعها في جوفي لأحميها من شراسة أناملكم، وقد تخطيتم الحدود عندما وطئتم موطني السري، لهذا فإنني تهت بكم إلى هذا العالم وحولتك إلى كائن أغرب مما رأته عيناك، لكنه ليس بغريب بالنسبة لي، ولكي أبين مدى شساعة قوتي أمام ضآلة عقولكم وأحجامكم، ألم يكفيكم أن تتسكعوا فوق رأسي بكل حرية، بل وتعديتم حدودكم بأن بدأتم بالسطو على ثرواتي وكنوزي المخبأة، وتسرقون متاعاتي السرية التي أضمها بين أحضـــان قلبي، هذا تحذير بســـيط مني، لا مزيد من انتهاك معادني وأسراري، اتركوها لي، كي تبقى الأرض منبت الكنوز وجوهرة لامعة بالخرافات والأســاطير، فما الفائدة إن تم الكشـــف عن كل شيء، ســـتغدو نظرتكم لي باهتة وجافة، الأسرار لن تبقى أسرارا إن تم الكشف عنها، لذلك خذي آلة التصوير، وابتعدي عن ما قد يؤذيك ويحطم من سمعتي .

استفاقت كما لو أنها كانت في حلم، التفتت برأسها فأحست بألم كبير في رقبتها، بعدها تداركت أنها كانت مستلقية في المستشفى بعد تحطم الطائرة إثر ذلك الاعصـار الغامض، اندهشـت حينما لمحت بجانبها آلة التصـوير التي نســيتها في غياهب الكهف، وما زاد من دهشـــتها أنها لا زالت تعمل، حملتها وتوجهت بأناملها نحو أيقونة الصور، لكن للأسف كل الصور حذفت، لم يتبق سوى صورة سوداء بالكامل، متأكدة أنها لم تلتقط تلك الصورة، لكن الأرض هي من أرادت أن ترسل لها رسالة خفية، أن جمالية السر تكمن في غموضه وسواد

أطرافه، ولا يستطيع الضوء كشف ظلماته. فعلا فالصورة المظلمة كانت أجمل بشكل أغرب من صور المصباح الكاشف.

دواء الحياة

في قلب البيداء المقفرة انجلت أصوات البوم الجاهظ فوق القبة الهرمية وتوارت الخفافيش العمياء عن سفح السماء الظلماء، حتى انتزع من أحشاء الأرض كل الأرواح النافرة التي تبث الروع والفزع في قلب الصغيرين اللذان ينامان إبان الهزيع الأخير من كل ليلة حتى لا تستطيع الوحوش الضارية إفساد أحلامهما الوردية التي تتناثر على جسمهما الهش كالبخش الرقيق، كأن الحلم قد أباد أهوال الظلام الذي اكتسح كل بقعة من بقاع أرضهم اليابسة، لا الأشجار وجدت تربة هشة لتعانقها بجذورها وتمتص منها الغذاء وترتوي من مائها الدفين، ولا حياة تنبض باسم ولادة جديدة، إلا أن الصغيرين يحاولان التغلب على أحشائهم التي تزمجر داخلهم وتبرز عن أنيابها الملهوفة في انتظار لقمة تنجرف عبر الأنبوب الهضمي، يبقى الأمل الوحيد هو لملمة شتات الوجع والفرار من أنقاض الهلاك .

قررا الاستعداد لرحيل أبدي، مخلفين وراءهم أطلال ذكرياتهم المفجعة. بدأ النور يسطع تدريجيا وهو ينهش أطراف السماء السوداء، فتوضح الطريق وأزيل عنه غبار الغموض، فتح الطفل الموجوع زرقاوتيه وهو يحدق في الفراغ، ومن النظرة الأولى يتبين أنه يعاني من الجوع المدقع من حالته المزرية، وحدة بروز فقرات ظهره المحدب الذي تكسوه قطعة قماش ممزقة، وجسده الهضيم الذي لونه اصفرار العوز والحرمان من لقمة العيش، وبجانبه أخته التي لا تختلف عنه في درجة المعاناة الجسمية والنفسية .

حملا نفسيهما قاصدين يد العون طارقين باب المجهول، انبعث من بين آذانهما صوت رقيق، عانق روحيهما، وغمر قلبيهما المترعين بالجمود والإنهاك، كان

الـصوت قادما من الرياح الخفيفة التي دغدغت أطراف القماش على خـصرهما وداعبت خصلات الشعر التي تتراقص على وجنتيهما الملتصقتين بين فكيهما.

بدآ بالمشيـ لسـاعات طوال، والجوع ينهش أوصـالهما، فلم يسـتطيعا الاستمرار وسط القحط والجفاف، لاحت لهما شجرة مجوفة لا يبدو عليها ولو ذرة حياة، فقط كانت عبارة عن جذع خشن وأغصان يابسة وجذورها العارية التي تبدو كمخالب ساحرة عجوز، اندفعا نحوها ليستريحا تحت الظل الطفيف الذي ينعكس من أغصـانها على سـطح الأرض، وأسـندا ظهريهما على الجذع ليسـتسـلما للنوم، تاركين واقعهما المرير الذي نغص عليهما لذة الحياة، وأسـقطهما في الدرك الأسـفل للجحيم، حياة كانا يعيشـانها في منتهى الرغد الجود، حتى أتى اليوم الذي قلب موازين النعيم، دمر الأخضرـ واليابس، قضىـ على آخر ذرة حياة، كان اليوم الذي خلد أشـنع مأسـاة قد عرفوها في حياتهما، التي لم يتذوقوا فيها سـوى طعم الدفء والحضـن في جوف عائلة محبة، كانت البيداء المقفرة جنة خضراء، لم يمسسها ضرر، رائحتها مسكية مضمخة بشتى روائح الخضرـوات والفواكه والزهور، كل أنواع الطيور والحيوانات اتخذتها مسكنا، والأشجار كانت تنافس أقرانها في من ستحمل أجمل وأكثر وأحلى الثمار، ليكتمل الخير والكرم، لكن في لحظة واحدة تبخر كل شيء، كأنه لم يتواجد من قبل، تحول إلى فتات وتطايرت أشلاءه مع الرياح، حيث أتى يوم أسود لم تشرق فيه الشمس ولم يظهر من السماء لون الزرقة الصافية، ولا البلابل التي ترفرف بين ثنايا السماء، لم تكن سوى موجات ضبابية سوداء كالأدخنة تخنق المكان، وتنبعث منها روائح المرارة والاحتراق .

كان الصـــغيرين يتســـابقان على قمم الجبال الفارعة الطول، فخطفت بصرهما ومضة برقت على قزحيتيهما، ليصعقا من شدة الصدمة وهول المنظر، كان الجســم الناري الضــخم قادم من الســماء بسرــعة صــاروخية، وهو يزداد ضخامة بين أعينهما، وفي لحظة سقط على الجنة لتتحول إلى كتلة أدخنة بترولية تنبعث منها النيران، ركض الأخوان وهما يتعثران بأرجلهما النحيفة في الأشـــلاء المبعثرة على الطريق، فالفردوس بأكملها تحولت في غمضـــة عين إلى سراب، كل شيء دفن في قلب الأرض من بـشر وحيوانات وأ شجار، أ صبحت أر ضا جرداء لا حياة فيها إلا الصـــغيرين اللذان ابتعدا عنها إلى أقاصي الجبال، كل العائلة، كل الحضن، كل الغذاء، تبخر كل شيء للآخر.

عندما خمدت النيران واختفت الأدخنة، تبين أن ذلك الشيء الذي سقط من السماء كان حجرا ناريا ضخما، أتى من الفضاء الخارجي، وسقط على أجمل المناطق ومصـــدر عيش مختلف الكائنات، ليموت كل شيء وأي شيء، بقي الصغيران وحيدان يتيمان، لم يمسسهما ضرر خارجي، لكن دمار داخلي أهلكهما وقتل روحيهما .

اسـتيقظ الفتى من نومه وحلق بعينيه في السـماء، ثم لمح جسـما غريبا يطفو على مقربة منه، وهو يقترب حتى هبط على الأرض، كانت مائدة بها قطعة لحم ضـــخمة، بعدما رآها، انهال عليها دون شـــعور، وبدأ ينهش اللحم والدماء تنسكب عليه، حتى أنه ملأ بها راحة يديه وشربها متعطشا وهو يأكل اللحم الغض كالســـبع الجائع النهم، والدم ينســـكب بغزارة على الأرض، حتى وجهه وقطعة قماشـــه اصـــطبغت للآخر باللون الأحمر، فأصـــابه الإغماء من التخمة بعدما ملأ معدته، وأسدل جفونه مستسلما لنوم هادئ وعميق .

اســتيقظ على أصــوات مزعجة، وفتح عينيه على مجموعة من النســور تحوم حول جثة وهو يراقب قطعة القماش المدماة والملقاة على الأرض، ركض نحوهم بسرعة جنونية وهو يبعدهم عن الجثة التي لم يتبق منها سوى العظام الناحلة، أمســـك العظام بين يديه الداميتين وهو يذرف الدموع التي تلونت بالدماء الملتصـــقة على وجهه، ويصرـــخ بحرقة: "أختي، لم أكن بجانبك حين أصبحت فريسة لهم، لماذا لم توقظيني؟ لم تركتني نائما؟ كنت سأنقذك من تلك الوحوش الكاسرة، لقد بقيت وحيدا يتيما ."

أخذ العظام كأنها ســـتلتحم مجددا لتعود أخته للحياة، ورحل ببطن ممتلئ بلحم لا يعرف كنهه، فمضىـــ نحو المجهول، كان طريقا طويلا ولا نهاية له .

بجانب الشجرة المجوفة، شقت شتيلة طريقها من بين الدماء التي بللت التربة وسهلت عليها طريق النمو، التي أعلنت عن بداية حياة خرجت من نهاية حياة أخرى، ومن هنا كانت دماء أخته ســببا لبداية حياة جديدة على ســطح البيداء المقفرة .

الاعتذار

سـألتك ماذا تريد، فأجبتني أريد الموت، ما هذا الميول السـوداوي، هل أنت تعيس لدرجة أنك لا تصدق أنه لولا القبح لما كان الجمال، لولا الفشل لما كان النجاح، لولا التعب لما كانت الراحة، لولا الحياة لما كان الموت، الموت ليس إرادة، الموت قدر، سـتموت في يوم من الأيام كما ماتت جل الكائنات الحية والميتة، ما دمت تتنفس وتحس بوجودك، تحلم وقلبك يركض وراء إشراقة الشـمس أو سـطوع البدر، فلك الحق في أن تسـعى إلى تحقيق إرادتك سـواء كانت أضـخم من حجمك، أو أصـغر من وريدك، لا تسـابق الزمن وتتخطى تفاصيل ستندم عليها لتتمنى اليوم الذي ستستلقي فيه على الفراش طريحا، تصـارع فيه آخر الشـهقات، آخر ذرة رياح، انتظار الموت للجبناء، فهل أنت جبان، أين ذهبت أبهتك حين كنت تمتطي الحصان وتسابق الغزلان في رشاقة قوامها، لماذا تتمنى الموت، وقد شـاهدت بريق عينيك وحيويتك المفرطة وأنت تتأمل تلك النجوم السـيارة، حينما حدثتك أن لا ترفرف بعينيك وتتمنى أمنية، هل كنت تتمنى الموت حينها، لكن ملامحك لم تكن تبين ذلك، وعيناك توسـعتا من السعادة، وقد ميزت ذلك حين سألتك الآن، غدت نظرتك باهتة، وملامحك خافتة، من أطفأ ذلك الوهج السـاطع في روحك، أرجوك أخبرني، هل كانت الأمنية شخص وقد رحل لتتمنى الرحيل معه كذلك، أم كانت الأمنية أن تعيش بقية حياتك في بلاد، لكن طوفانا قد دمرها ولم تعد صـالحة للحياة، لذلك فروحك لم تجد مكانا لتحيا فيه، أصـبح ظلك يلتصـق بالجدران، ويختبئ من غدر الزمان، ليترك جسـمك يتهمش في العراء، وحيدا بلا رفيق أو مؤنس، حتى يتجمد ببرودة الصقيع، يشحب عودك وينخر عظامك، يسلب إرادتك في الحياة، ويضع أمامك حبل المشنقة، بعدما يؤكد لك أنه الخلاص الوحيد لمعاناتك، هذا الإحساس أو سأصفه بمعنى أدق، الإكتئاب، مرض نفسي حاد، يبدأ كوهم لينتهي

بحقيقة لا مفر منها، يتولد من الفشل الذي تراكم على أنفاسك، كبل أضلعك وآمالك، أنت الآن تتجرع الآلام بحرقة صدر، وتنهل من رحم المعاناة التنازلات عن أحلامك الكبيرة، لتعود إلى نقطة الصفر، وتتمنى الموت الذي سينقذك من كل هذه الصراعات النفسية المؤذية التي تقض مضجعك، وتحاول أن تنهش دماغك حتى لا تستطيع عمل شيء أو التفكير بشيء، وتتجرد من مقوماتك الإنسانية لتصبح شيئا من الأشياء، وجمادا أو آليا يسير من طرف الإنسان، يعيش أحلامهم ويسعى لتحقيق رغباتهم، لا أحد قد يستشعر بوجودك وسط جمع غفير من الملأ .

تبقي عينيك في الأرض، لأنك لا تستطيع التحليق بآمالك في السماء، ليبقى أملك الوحيد هو أن تحشر جسمك في غياهب الأرض، لتطلق سراح روحك التي اختنقت وسط مكان ما عاد ملائما للراحة والسلام النفسي بل مجرد فوضى و ارتطامات لا تحصى من الأشياء المبعثرة التي لم تضعها في المكان المناسب، لذلك فالروح ضاق بها الجسم وطلبت منك الخلاص، وأنت الآن تسعى لتحريرها ونيل رغبتها، قبل الموعد المقدر لها .

توقف عن تدمير نفسك بالأفكار السامة التي تحاول أن تحتقر من قيمتك كإنسان، وتلعب بمشاعرك، توهمك أنك لن تفعلها بعد الكثير من المحاولات الفاشلة، لن أسميها بالمحاولات الفاشلة، بل طريق خاطئ بين مجموعة من الطرق التي حتما أحدها هو الطريق الصحيح، أنت فقط دخلت الطريق الأول لكنه كان مقفلا بجدار، فما استطعت أن تعود ولا أن تفكر في احضار معول لتحطيمه، فقط جلست هناك تندب حظك الذي اختار لك بداية صعبة، لم لا تنتشل نفسك من وسط ذلك الغم وتعود أدراجك نحو نقطة

البداية، ثم تجرب الدخول إلى الباب الثاني، وإن حدث نفس الشيء، عد مجددا فلم يبق الكثير، فقط لا تخمد وتجبن من مسايرة أقدارك، كن أنت المسيطر على زمام الأمور، ولا تدع ذلك الثقل يتراكم عليك، أفرغه بالتفكير الإيجابي، بالأمل والقوة والعزم والصراع من أجل الحياة لا من أجل الموت، أنر تلك الشمعة التي أطفأتها رياح الخيبات بإيمانك بأن الحياة ستشرق مجددا، كانقشاع الليل بعد تجلي النهار، وتسلل أشعة الشمس بين زرقة السماء.

أرجوك عد ذلك الصديق الذي يخلق من الليل أنسه، ومن وحدته تفرده وازدهاره .

الخلاص من هذه المحنة بيدك وليس بيد شخص آخر، أدرك وقتك الآن قبل أن تندم يوم لا ينفع ندم، ولا تدع تلك البوابات الأخرى التي ستؤدي بك إلى الطريق الصحيح أن تعششها العناكب بسبب تأخرك، قف من جديد واركض إلى النهاية كما عهدتك، تسلق القمم رغم وعورتها وحاول أن تطأ أقدامك قممها، لتضع بصمتك الأولى كإنجاز عظيم، تحدى الحياة لأنها ستتعب منك في الأخير، إن كانت قوتك تتضاعف بعد كل اصطدام بمصائبها.

تحمل فلم يبق الكثير، إن كان مقدرا لك أن تحصل على شيء فستحصل عليه، ولو اجتمعت دورة الأفلاك كلها ضدك، لا تتعب نفسك بالتفكير الزائد الذي لا أهمية له سوى أن يعرقل طريقك ويضيع وقتك نحو النجاح الذي تستحقه بعد جهد كبير، فابذل جهدك في زرع الثمار ولا تنتظرها كي تزهر وتثمر، فإنها حتما ستنمو بعد أن تناسيت مكانها، لتظهر لك شجرة فارعة الطول متشعبة الفروع، وتأتي بقفافك كي تملأها بغلالك، فازرع الجهد أينما حللت وارتحلت، فلا تدري في أي أرض ستثمر بذورك بعد أن تغافلت عنها ونسيت أمرها، لا تجعل من

بذرة واحدة أملك في تلك الأرض الواســـعة، قد تكون بذرة عقيمة، إذن لملم شــتات روحك وابدأ من جديد، ســتصــيبها لكن فيما بعد، لا يوجد شيء تحقق بعد المحاولة الأولى، إلا إن كان الشخص قد قدر له طريق واحد، وبعدها تنتهي الحياة .

لعبة القدر

لقد دخلت إلى ســنوات عجاف من البؤس، انتظرت اليوم المشرــق على أحر من الجمر، والذي سـيأتي دون طرق الباب، اخترت العودة إلى الماضي حيث الانتصار تلألأ بين مقلتاي، وجعل الصمت يتودد إلي أن لا أتسرع في التفكير، أن لا أثرثر أكثر، أن أغمض عيناي وألامس الواقع قليلا، أتحمل قليلا بعد، قليلا بعد، قبل أن أتوهم النجاح، كنت أثق بقدراتي لكن بغرور زائد، أجد المتعة في الاستمتاع بنجاحاتي الساحقة والتي لم أسع إليها خطوة واحدة حتى، أرى نفسي قبل أن أتخذ أي قرار أنني كسبت وراء ذلك المشروع شهرة واسعة ونفوذا قويا، لكنه لا يزال سوى فكرة تترسخ في دماغي، وثرثرات بلا طعم أرددها أمام المرآة حين أقف منفوش الصدر مستقيم الرقبة كذا شأن عظيم، مازالت أمي تعيلني في دراستي كي أتخرج من الجامعة، لكن الدراسة لم تكن تهمني، بل فقط أردت مجاراة رغبة أمي كي لا أخيب أملها، ففي الأخير أحبها أكثر من نفسيــ وأقدر كل جهودها التي كابدتها من أجلي، والتي لن تضــيع هباء منثورا طيعا، إلا أنه كان لدي ميول كبير وهوس خارق بعالم الالعاب، حيث منذ نعومة أظافري وأنا أحلم أن أصبح أشهر صانع ألعاب فيديو، أعمل بشدة وأكثف جهودي من أجل تحصيل أكبر عدد من الأفكار، لأن مجال صناعة وتصميم ألعاب الفيديو يحتاج إلى عالم واســع الخيال والأفكار، لكن يتبقى الجزء الأهم وهو تحويل هذه الأفكار الافتراضية إلى صور حقيقية. كانت موهبتي في التصوير احترافية بتقنية ثلاثية الأبعاد، وحتى البرامج التي تعمل بها الألعاب أحترف استخدامها بامتياز، ولا شك أنني أستطيع تطوير مواهبي إلى صنع برامج جديدة لابتكار ألعاب لا مثيل لها، كنت أفرغ كل طاقتي المشــحونة بالعمل المرهق، وأقضيــ ســاعات طوال من دون نوم، أركب الصـور في جهاز الحاسـوب، أحاول ابتكار شـخصـية تتحرك وتتكلم وتقاتل، وفي تلك الصور أحاول إضافة عالم ملائم لتلك الشخصية،

لكنني في الأخير تعرفت على صـــديق له نفس الهوس، بالإضـــافة إلى ذلك فهو محترف في مجال القرصنة واختراق الأنظمة، كان على قدر ممتاز من المعرفة في عالم الألعاب، وقد أخبرني أن أفكاري أدهشـــته ويود أن نشـــكل فريقا واحدا، نوحد أهدافنا ونمزج قدراتنا كي نصـــنع معا لعبة فيديو تكتســـح ذروة النجاح، وبدأ يغريني بالشـــهرة والنفوذ ويزهر لي شـــعلة في آخر النفق، يهديني أحلاما قرمزية تلمع ذهبا وأحجارا كريمة، اتخذته الصديق السري الوحيد الذي لم أر إلا صورته الوحيدة التي كان يضعها في حسابه الشخصي، أصبحنا نعمل معا في صنع لعبة القرن، حيث ستنفجر شهرتها في حين الاعلان عن افتتاحها، أو هكذا تخيلت بداية الطريق نحو النجومية التي بها سأحلق في الفضاء كشهاب ناري وكل العالم سيشاهدني لتميزي في سماء الإبداع بين النجوم. صنعت من غرفتي عالما من الخيال الممزوج بمعداتي الاســـتثنائية التي كانت تعني لي حياتي المستقبلية المزهرة، كنت أمضي جل أوقاتي مع صديقي الوهمي الذي ربطتني معه علاقة قوية تحيل على الثقة المتبادلة بيننا، كنت أعطيه ما التقطته من صـــور ومعلومات في مجال البرمجة التي ســـاعدتني على البدء بإنشـــاء برامج خاصـــة بصـــنع وتطوير ألعاب الحاســـوب، أخذنا الخطوة الأولى نحو مخططاتنا التي صـــممناها طيلة عملنا اليومي معا، كانت اللعبة في بدايتها الأولى هي بداية الطريق نحو النجاح، والضرـــبة الأولى نحو طريق العمل المفعم بالأمل والأحلام الساطعة، دمجنا خبراتنا وسنين تجاربنا، سهرنا الليالي في محاولة تطوير الأفكار وتحويلها إلى صور كرتونية، كانت الصعوبة في تصميم قصة استثنائية وشخصيات ستصنع الحدث، لكن هذا لن يمنعني من المحاولة، لأن موهبتي في الرسم احترافية، لم أجد صعوبة في إيجاد الشخصية المناسبة للعبتي الملحمية، التي تحتاج إلى محارب متعدد المهارات، اذ يجب أن يتوفر على أســـلحة فريدة

ولها تسميات مختلفة ستصبح هوس الأطفال عند إمساكهم بالعصي والعيش وسط الأحداث كأنهم يحملون الأسلحة التي في اللعبة ويقومون بتسميتها بتلك الأسماء، يا له من شعور، أو سيصنعون أزياء تنكرية تصبح حديث العهد لشخصيات اللعبة .

لم يتبق سوى بضعة أيام لوضع اللمسات الأخيرة للعبة، بعد سنة من الجهد الشاق والعمل العسير بين الصديقين للوصول إلى المرحلة الأخيرة من التصميم والتصوير والتنسيق والتطوير، توصلوا إلى لعبة نموذجية استثنائية، ستقلب موازين ألعاب الفيديو، وستكون حديث الساعة قبل صدورها.

في الليلة الأخيرة، كان الحماس مضاعفا، لم يناموا من شدة سعادتهم على تحقيق هذا الإنجاز الكبير، كان الصديق الذي لم ير إلا صورته يحادثه طول الليل على النجاح الذي ينتظرهم في المستقبل القريب، حيث كانت نهاية السهر والارهاق للوصول إلى النتيجة الحتمية بمشقة أنفس، في تلك الليلة انتهى من الاحتفال مع صديقه الوهمي، ونام وهو في قمة السعادة، لم يستيقظ حتى الصباح بعد أن راودته الكوابيس المزعجة، فارتاح عندما فتح عينيه ووجد أنها مجرد أحلام تسربت من أعماق خوفه الدفين، من شدة اللهفة اتصل يرقم صديقه الوهمي الذي أعطاه له في حين أنه قد وعده بأن يتم اللقاء بينهم في ذلك اليوم الذي سيكون البداية لحياتهم الجديدة لمشاركة النجاح معا، بدأ الهاتف بالاتصال لكن ما من مجيب، فتح جهاز الحاسوب فاصفر وجهه من الصعقة، ارتعدت أطرافه وتشنجت أنامله على لوحة المفاتيح، بدا لا يستوعب شيئا مما يحدث، كأنه تلقى الصفعة القاضية، بدأ الضباب يكسو صورته

المستقبلية، حتى اكتسح السواد عالمه ودمر الشعاع الذي يركض إليه في نهاية الطريق .

اختفى كل شيء، ماذاااا؟؟؟ اختفت البيانات، الصور، البرامج، المشروع، لعبة الفيديو اختفت، الأفكار، الأبحاث، تبخرت كل الجهود وكأنه لم يحرك ساكنا، كأنه لم ينجز شيئا. ماهذا؟ كيف يحدث كل هذا في اليوم المنشود؟ تذكر صديقه، فذهب إلى برنامج المحادثات ليرسل له رسالة استفسار عما يحدث، وما إذا كان يملك نسخة من لعبة الفيديو، فإنهم لمن الناجون، عندما فتح البرنامج وبحث عن حساب صديقه ولم يجده.

ما هذا؟ كيف يعقل؟ لا يمكن، هل يحدث حقا ما أفكر فيه؟ ليس من ذلك النوع من الأصدقاء، هل حقا طعنني هكذا، يا إلهي، كيف لم أفكر في ذلك، هو مخترق للأنظمة، وقد قام باختراق حاسوبي، ومسح كل البيانات بعد أن نسخها، اللعنة، كم كنت غبيا، كيف من الممكن أنه لم يحادثني صوتا وصورة ووثقت به، يا لقمة سذاجتي رغم عبقريتي في البرمجة، لقد لقنني درسا لن أنساه في حياتي، استغلني واشترى كل خبراتي التي اكتسبتها سنين طويلة بثمن بخس، مستحيل سيحتفل بالانتصار وحده، ستشتهر اللعبة باسمه فقط، رغم أنني صاحب الأفكار، صاحب الخيال الواسع، العبقري المتعدد المواهب، كان ينتظرني دائما أن أبادر بالجديد من الصور والشخصيات ووو... لقد سحقني كحشرة مضرة، دمرني كعائق في الطريق، حطم طموحاتي وأخمد شعلة الأمل التي كانت تتوهج في كياني، انتهيت، وانتهى كل شيء كما لم يكن .

بعد بضعة أيام جاء حدث لعبة القرن كالصاعقة، حيث تداول الصحفيون الخبر كالآتي :

انتشرت لعبة الفيديو للمصمم العبقري ب.ب.ج في وسائل التواصل الاجتماعي كالنار في الهشيم، حيث حظيت بنجاح ساحق وأرباح وصلت إلى المليارات، بيد أن صاحب اللعبة أخفى معلوماته الشخصية، ولا أحد يعلم سر غموضه، فمنهم من قال أنه خجول جدا، ومنهم من قال أنه يحب أن يعيش كإنسان عادي بعيد عن الأضواء والضغوطات، ووو... استمرت الظنون حول تفسير تصرفه الغريب حول إبقاء شخصيته تحت قناع الغموض، إلا ذلك الشاب البائس الذي حمل العصى وحطم شاشة التلفاز.

الخاتمة

انقشـع الصـمت على أركان الحي الصـفيحي، لتبدأ خيوط الشـمس بالتسـلل على صـفيحة الارض الاسـمنتية الباردة، وتعود دورة الحياة الرتيبة إلى مجاريها على سـكان الحي من عمال وأصـحاب الدكاكين وسـائقي التاكسي ـ والموظفين، هناك قرب الغدير الرقراق الذي اصـطفت في جوانبه الصـخور الملسـاء، يقبع منزل الطين الصـغير الذي يقطن فيه الرجل العجوز المنسي ـ على ضفاف الحياة القاسية، في زمن يدلل الحقير ويذل الفقير، وسط وحوش ضارية، ويبقى الحجر أرحم من بعض البشر.

أرضية منخورة، جدران طينية مهشمة، أواني بها بقايا طعام تنبعث منها رائحة القذارة، فئران يتقاطرون من كل زاوية ليلتقطوا كسرـات الخبز المتناثرة على قطعة الحصير الممزق.

في بقعة كحلية يتقوقع الرجل العجوز منعزلا عن العالم، واضـعا رأسـه بين يديه، خائب الأمل والعزم، منكسر الروح على رائحة الصدمة التي خلفت في نفسـه أزمات غائرة الجروح، كل أبنائه انشـغلوا بأمور الدنيا ونسـوا أمر أبيهم، نسوا من ضحى بعمره لتنشئتهم وإطعامهم وكسوتهم، هو من كان الاب والام في نفس الوقت بعدما توفيت والدتهم وهي تحارب مرض السرـطان السـارق، الذي سرق زهرة عمرها المشرقة .

أخرج رأسـه من قوقعته، ليتفسـح بعينيه المعمشـتين أسرار العالم الخارجي، ويتوه بين مشهده المعتاد، كان الزحام يشتد في الظهيرة، وحركة المرور تـصم أذنيه الهـشتين، بدأ يتعثر في خطاه نحو مـصنع الأدوية المهجور الذي كان مكان الذكريات المجيدة، في عالم كان الخير يهطل من سـماء البركة على صـحراء قاحلة، لتتحول إلى جنة عدن خضرـاء، كان مصـنع أبيه الذي ورثه عنه وقضى ـ

عمره في العمل فيه وخدمة أبناءه الذين هجروه بعد ما وقع انفجار هائل داخله، ترتب عنه خسائر مادية وبشرية فادحة، وأصبح المكان مجرد صورة باهتة، وجثة لا حراك فيها، فتحول إلى مطرح النفايات. فجأة!! انبعث نواح ضعيف من قلب أكوام النفايات التي تكدست على جوانب المصنع، أصيب العجوز بارتجاف شديد على صدره، تحجرت مقلتاه على قطعة نسيج أبيض ظهرت من وسط النفايات، كان الصوت يلح عليه الاقتراب أكثر فأكثر، حتى برقت عيناه عندما برزت قدمان صغيرتان تتقافزان تحت كيس بلاستيكي أسود، أزاحه العجوز بيديه المتيبستين، ليسطع نور وجه ملائكي على روحه الظلماء، ويبسط أشعته في مملكة قلبه الموحش، ليبدأ الدفء يعتمر قلبه وروحه، كان طفلا صغيرا ذو الستة أشهر تقريبا، تُرك تحت رحمة هذا العالم الكبير، وبحوزته ثلاثة أشياء فقط، صورة بالية، وبدون شك تعود لأمه، وورقة صغيرة كتب عليها: "ابني العزيز أرجو أن تغفر لي، ستجد من يأويك، أنت تحت رعاية الله وحمايته، إن كبرت، ابحث عني، فعناقك سيطفئ شعلة قلبي المحروق، ويشفيني من وجع الطعنات التي تلقيتها من الحياة المخاتلة الفانية". وسوار سماوي اللون يزين معصمه الناحل. حمله العجوز وأخذه إلى بيته، والفرح يراقص قلبه النابض بعد حياة كئيبة، أشرقت الروح على البيت الحزين، فسماه عمر، لأنه أحيا في قلبه عمر الزهور مجددا.

مضت الأعوام حتى بلغ الطفل العشر سنوات، ذهب هو والعجوز في رحلة نحو الجبل، بدأوا بأكل الشطائر الخفيفة، فجأة تساءل عمر :

- جدي هل من المرجح أن تكون أمي لا تزال على قيد الحياة؟

أجابه العجوز بصوت أجش:

- بالطبع عزيزي، فهي قد طلبت منك أن تبحث عنها، لذلك فهي لا تزال تنتظرك لتجدها.

- لكن كيف في هذا العالم الكبير؟ إن ذلك أشبه بالبحث عن إبرة وسط كومة قش.

- إيجادها كان سيكون مستحيلا بدون الصورة، لكن الآن سيلعب القدر دوره يا بني، ستجتمعان في الأخير، فما أغرب الصدف التي نشهدها في حياتنا اليومية .

كانت قريحة الماضي مصدر كوابيس عمر المتلاحقة، حيث أمضى كل وقته في السنتين المنصرمتين وحيدا في بيت الجد، بعدما ودعه بين يديه، حين شهق شهقته الأخيرة ووافته المنية، كان هو معيله الوحيد، لا أحد الآن يستطيع أن يعتكف حضنه وقت الضيق وتقلبات الحياة، أضحى عمر ذو الاثني عشر ربيعا منعزلا في ركن الذل والحرمان من أبسط أمور العيش، وحيدا مكسور الجناحين، بلغ الجوع منه مبلغه، وسافرت عيونه بين مختلف الأطعمة والتي تتراقص أمام مخيلته المحطمة وراء آمال مستحيلة، لاحت له من بعيد صناديق من التفاح الأحمر الطازج المصطفة على الأرض قرب شاحنة نقل ضخمة، احمرت عيناه وارتعدت فرائصه، سال اللعاب من ذقنه، فانجرف نحوها مسحورا، أخذ واحدة وخبأها في جيبه، لكن سرعان ما افتضح أمره، بدأ الباعة وأطفال الحي القريب ينهالون عليه بالضرب المبرح والألفاظ النابية، وينعتونه بالسارق، المنحط، ابن الحرام، وفجأة تناهى إلى سمعه صوت قوي:

- توقفوا !!! لقد كاد أن يموت جوعا، ما كل هذا التعذيب لمجرد أنه أخذ تفاحة.

التفت عمر إلى صاحب الصوت، كان فتى في مثل عمره تقريبا في كامل أناقته، وزيه يوحي أنه من الطبقة، البرجوازية، مد إليه يده وسحبه من وسط الجمع الغفير، توقف لحظة وخاطبه مشفقا على حاله:

- اسمي ياسر، وقد أتيت صدفة اليوم إلى السوق لأن أمي في حالة صحية متدهورة، ولذلك فالخادمة تتكفل بأمر رعايتها، وذهبت أنا بدلا منها لأشتري الأغراض اللازمة، هل أنت جائع؟

أتى وقع السؤال كرحمة أمطرت من سماء الغيث فسقت الأرض حتى روتها .

- بل أنا أموت من الجوع.

- أنت تبدو في حالة مزرية، وجسمك مغطى بالجروح والكدمات نتيجة سرقتك للتفاحة، من الأفضل أن تذهب معي للبيت كي أطهر جروحك وأوفر لك الطعام الكافي لك ولعائلتك.

انهمرت دموع ساخنة على وجنتيه الضامرتين، وأجابه بحرقة شديدة:

- أنا، أنااا، ليست لدي عائلة، أعيش وحدي، وأقتات من بقايا النفايات.

ترقرق الدمع من عيني ياسر، فربت على كتف عمر، وبعدها ذهبا معا إلى المنزل .

صــعدا بخفة بهلوان الدرج المؤدي إلى غرفة ياسر، ففتح الباب، وأجلس عمر على كرســيه الجلدي الفخم وأشــار إليه أن ينتظره ليحضرــ له الطعام والمعدات اللازمة لعلاج جروحه، بدأ عمر يحدق في ثنايا الجدران مفتونا بزينة الغرفة وألوانها، مرت عيناه على صـورة جدارية صـغيرة معلقة في أعلى الجدار، فقفز من مكانه واقترب كي تتضــح له الصــورة أكثر، على حين غرة امتقعت سحنته وأصابه أشبه بالدوار، أخذ يتمعن في تفاصيل الوجه المخفي بشرود تام، اهتز كيانه وارتعشت نبضات قلبه، تزلزلت الأرض تحت أقدامه، وتعرق جبينه حتى أصـبح يقطر على صـدره، أتى ياسر، وفي لحظة لمحه كجثة شـاحبة، خاطبه متمتما:

- عمر، ماذا حل بك؟ هل أنت على ما يرام؟ هل الجروح أصابتك بالإغماء، ربما يجب عليك الذهاب إلى المستشفى.

أشار عمر بسبابته المرتجفة إلى الصورة المكونة من ثلاثة أفراد متلعثما في كلامه.

- من هي تلك المرأة في الصورة؟

أجابه ياسر بحيرة: أي امرأة تقصــد، فهناك امرأتين في الصــورة، احداهما أمي أقصــد المرأة التي تقف بجانب الرجل، والأخرى كانت خادمة عندنا واســمها عبير، وذلك الرجل هو أبي يزيد .

- لا لا مستحيل، كانت خادمة لديكم في البيت، لقد وجدتها، فعلا صدق جدي، ما أغرب الصدف في الحياة .

اندفع عمر على الباب كأنه مطارد من طرف الأشـباح، وترك ياسر في حيرة كبيرة من أمره، معتقدا أن ما أصـــابه لم يكن ســـوى حمى هذيان، تبعه ياسر وهو يصرخ: توقف، توقف، ما خطبك، عد إلى هنا .

أخذ يركض بلا هوادة ولا هدف على الطرقات، حتى صارت الرؤيا شبه منعدمة، ثم ظلام دامس أغشى عينيه وانتهى الطريق .

فتح عينيه الواهيتين، وأرعبه منظر الدماء المتناثرة في كل زوايا الغرفة، بدأ يحدق في الجدران البيضـــاء التي بدت كموتى تلتحف البياض، التفت يمنة، فأبصر ياسر مع نفس الرجل في الصـورة، لكن كان أكبر سـنا وبشـعر أشـيب، يحدقان فيه من وراء زجاج النافذة، وهما يتكلمان مع الطبيب، فجأة انفتح الباب، فدخل ياسر وتبعه أبوه حتى وصلا بالقرب من السرير، وجلسا على كنبة مهترئة، بدأ ياسر يحدق فيه مبتسما، ثم قال له :

- هل كنت تعرف خادمتنا عبير؟

أجابه بصعوبة كبيرة والكلمات تخرج بجهد كبير:

- تلك المرأة تكون أمي، وقد تركتني في مطرح النفايات، ولم تترك لي سـوى هذا السوار، وصورتها، ثم بضع كلمات على قطعة ورق .

عندما أكمل كلامه تلألأت عيناه بالدموع وأجهش بالبكاء .

اصـــفر وجه الاب، وخرجت عيناه عن محجريهما، قام من مكانه مرتبكا وعمر يحدق فيه بذهول، خرج كلص هارب، فأخرجه من شروده صـــوت ياسر وهو يخاطبه :

- يا إلهي، هي حقا تركتنا منذ اثنتي عشر- سنة، ولم أعلم مكانها إلى حد الآن .

- أخبرني ياسر، هل أمي كانت متزوجة؟

-لقد أدهشني أنها قد خلفت ولدا، لكنها على حد علمي، لم تكن متزوجة.

- إذن أنا ابن غير شرعي، لهذا رمتني أمي كقطعة من النفايات .

- لا لا أرجوك لا تقل ذلك، ما ذنبك أنت إن اقترفت هي الذنب وأنت تحملته عنها، أنت طفل غير محظوظ ليس إلا، لكن ربما أبي يعلم خبر مكانها .

في غرفة أخرى من نفس المستشفى، يجلس الأب قرب امرأة في مرحلة الكهولة، يخاطبها والأنفاس تقطع أحبال كلماته .

- عبير أرجوك استيقظي، لقد وجدت ابنك المفقود، لم أكن أعلم أن القدر سيجمعكم في مستشفى واحد، آسف سامحيني على خطئي الكبير الذي اقترفته في حقك، وفي حق ابني، لأن زوجتي لم تتركنا وشأننا، هددتنا بأن تقتل ابنك، وأن تدخلك للسجن، لذلك اخترت الرحيل بلا أية متاعب، لطالما كنت أنت التي أحببتها، لكن ذلك الذنب الكبير الذي اقترفناه سبب لنا الكثير من الصراعات النفسية واللعنة نزلت علينا، فليغفر لنا الله، والآن زوجتي تواجه مرض عضال لا يوجد له علاج ولا تفسير، وهي طريحة الفراش تنتظر موعد المنية .

انهمرت الدموع من عينيه لتهطل على يدها المبسوطة، وتتلألأ حبيباتها كاللؤلؤ، فجأة بدأت أناملها تتململ ببطء ويزيد يرمقهم في حالة بهتان، فخرج من الغرفة مهرولا بسريالية كالمجانين، وأخذ ينادي الأطباء .

عم الصمت في أرجاء الغرفة، والاطباء يحدقون إليها في دهشة، لأنها قد أمضت كل تلك السنوات في غيبوبة، كان من الممكن أن لا تستيقظ أبدا، حتى أنه انقضى الرجاء في أمل عودتها للحياة، كان من الممكن أن ينقطع الأكسجين وتنتهي المعاناة، لكن يزيد من فرط حبه لها لم يقطع الرجاء، ودفع الأموال الطائلة كي لا يموت صوت أنفاسها .

دخل يزيد إلى غرفة عمر، وأشار إلى ياسر بأن يخرج ويتركهما على انفراد، امتثل لأوامره ونظرات الريب تساوره .

- عمر ابني.

انهمرت عيناه بالدموع، احمر وجهه، وهو يتعصر كلماته ليتمم ما يود قوله، وعمر متسمر يحدق فيه بصمت .

- أنت ابني وفلذة كبدي، لقد جمعتني علاقة بوالدتك، لذلك فأنا أتحمل كل مسؤولية بؤسك، وأود أن أصلح الخطأ الذي ارتكبته في حق والدتك، ثم إنها تنام في غرفة أخرى في نفس المستشفى.

حملق عمر في أبيه والدموع تجمدت بين جفنيه، قام من مكانه بسرعة خاطفة، وأخذ يجر قدميه من غرفة لأخرى وهو يبحث عنها وراء زجاج النوافذ، حتى اصطدمت عيناه بوجهها الشاحب وجسمها الطريح وسط الأنابيب، فتح الباب عنوة، وانهارت ركبتاه أمامها، أخذ يتأمل كل تقاسيم وجهها، فحط رأسه على صدرها وهو يفرغ جوف أحاسيسه من الآلام وكل الضغوطات التي قتلت فيه روح الطفولة، فذرف الدمع حتى تناثرت القطرات لتبلل الإزار الأبيض الذي

يغطيها، أحس فجأة بدفء يسري في معصمه، على حين غرة خرج صوت أمه الدفين كرائحة الجنة :

- السوار الأزرق ما زلت تحتفظ به يا بني، لقد تحقق حلمي وأخيرا تعانقنا وانطفأت نار أشواقنا، وتبدد الألم الذي كان يقتل جسدي ببطء.

دخل يزيد وابتسمت عيناه، اقترب منهما وضمهما وهو يتمتم بكلمات جياشة:

- أنتم عائلتي وملاذي، أحبكم وأحبك يا بني، أنا آسف على كل شيء، سأعوض لك ماضيك العسير، وسأعوض أمك بالأفضل، سأتزوجها لنعيش تحت سقف واحد .

وراء فتحة الباب الضيقة، كان ياسر يراقب لحظات اجتماع العائلة، ويسترق السمع، فأحنى رأسه محطما، وعيناه تضمران كمية كبيرة من الحقد والكراهية، وانصرف نحو طريق مجهول .

وحش الغابة

عادت بها الذكريات البعيدة إلى زمن الطفولة، حين كانت تركض بدراجتها الهوائية بسرعة جنونية، اخترقت الغابة المجاورة حتى اصطدمت بجذع شجرة ضخم، دخلت في حالة اغماء، وعندما فتحت عينيها وجدت نفسها في الظلام، بدأت تصيح لكن ما من مجيب، جعدت حاجبيها عندما شدها صداع قوي في رأسها، تحسست جبينها ووجدت ضمادة مبللة دافئة، لابد وأن أحدهم حملها إلى بيته حين كانت في لحظة إغماء، ومدها بالإسعافات الأولية، جالت بعينيها ثنايا المنزل الغريب، حتى خطف بصرها فتحة صغيرة تسرب منها شعاع خافت، نهضت من الفراش الذي كان عبارة عن طبقة من القش المغطى بلحاف خشن، مدت رأسها ونظرت عبر الفتحة، في حين أبصرت أنها لا زالت في الغابة المجاورة، وليست ببعيدة عن منزلها، بدأت تبحث عن باب الخروج، وهي تلامس الجدران بسبب شدة الظلام، لذلك تعذر عليها رؤية المكان بوضوح، فجأة سمعت خشخشة في الجوار، وحدقت في تلك الزاوية التي يتحرك فيها ظل خفي، أمعنت النظر في ذلك الشيء الذي بدأ يقترب منها، حتى صرخت بأعلى صوتها، أخذت تهرول من ركن لآخر، فوجدت باب الخروج ثم دفعته بقوة، وسقطت على الأرض، قامت بسرعة مع التفاتة خاطفة، حدقت في ذلك الشيء الغريب الذي اقترب منها، وابتعدت تخترق عباب الغابة، إلى أن وصلت إلى المنزل، قرعت الباب بقوة وتوتر شديدين، حتى كادت أن تكسره، فتح لها أخوها الصغير الباب، وحملق باندهاش إلى ثيابها المتسخة ووجهها الشاحب الذي تعلوه كدمة حمراء، وشعرها المنكوش، فقال باستغراب: هل كل يوم تعودين بصورة أغرب؟ البارحة سقطت بدراجتك في الوحل، وقمت بالاستحمام في مستنقع الضفادع، بعدها تجرأت على الدخول إلى المنزل بذلك المظهر الكريه، واليوم ما قصة الكدمة؟ وأين هي دراجتك؟

برقت مقلتاها كأنها تذكرتها للتو: دراجتي، لا إنني في عداد الموتى .

عادت أدراجها تسابق الرياح وتركت أخاها يحملق باستغراب رافعا حاجباه وهو يتفوه بهمس: فتاة مجنونة، مكانها هو مستشفى الأمراض العقلية .

وصلت إلى مكان الاصطدام، لكن لم تجد دراجتها، قامت بالبحث في الأرجاء، لساعات حتى أسدل الليل ظلماته على الغابة، ولم تكد تميز طريق العودة إلى البيت، أصابها الهلع الشديد، تسمرت في مكانها وبدأت تنوح والدمع ينسكب من عينيها: أمي أرجوك أنقذيني، لن أعيدها مرة أخرى، ماذا أفعل فالتهور يلازمني في كل خطوة أخطوها، وفي كل مغامرة أردت أن أعيشها، ولدت بطباع التهور، وكنت دائما أنجو من الهلاك، لكنني لم أسقط في يوم كهذا في حياتي، ما ذلك الشيء الغريب الذي رأيته، صورته لازالت عالقة في ذهني، كان كائنا أشبه بالإنسان لكنه قصير جدا وله شعر كثيف يغطي كل جسمه، يا إلهي ماذا لو ظهر لي الآن وسط حلكة الظلام، أقسم أنه سيغمى علي مجددا لأجد نفسي في كوخه الذي يشبه علبة السردين. انبعث ضوء من بعيد لينتشلها من دوامة أفكارها، تتبعه صوت مألوف، مممم أمي، أمـــــــي. نهضت من مكانها وتوجهت نحو ضوء المصباح الأسطواني، حتى وقفت أمام وجه أمها الحانق والمشتعل غضبا تحت وهج المصباح، قبل أن تنهال عليها بالتوبيخ، ارتمت عليها وعانقتها بقوة قائلة: ظننت أنني سأموت، كم لدي من أم تصبر على جنوني، آسفة هذه هي المرة الأخيرة التي سأنطلق فيها بدراجتي بتهور، لأنه لم تعد لدي دراجة. خرجت صرخات أمها كدوي رعد: أيتها المجنونة، هل تريدين قتلي؟ تلك الدراجة ثمينة جدا، اشتراها لك والدك بكل ما يملك من نقود، تلك هديته لك الوحيدة التي تذكرنا به. انهارت بالبكاء بعدما أتممت

كلامها، كان مشـــهدا مؤثرا، مزق قلبها من شـــدة الحزن حين تذكرت يوم رحيل أبيها، قطعوا طريق العودة في صمت، حتى وصلوا إلى البيت سالمين، كانت ليلة مختلفة حافلة بالغرابة، أطفأت نور غرفتها وخلدت إلى النوم .

في الصـــباح اســـتيقظت من حلم غريب، كأنها تجوب الغابة بدراجتها فسمعت صوتا يخبرها أنه قد حان وقت الأكل، التفتت ورأت ذلك الكائن يقف أمام كوخه وهو يبتسم لها .

خرجت من المنزل لتحصـــل على بعض الهواء المنعش، لمحت أخاها الصـغير يلعب مع أقرانه، أصـابها الملل وجاءتها فكرة، نادت أخاها وأخبرته أن يلم أطفال الحي، فلديها قصة مخيفة عن الغابة المجاورة، حين اجتمع الأطفال، وقفت وكأنها على خشـبة المسرـح، وأمام الجمهور بدأت تسرـد ما حدث لها بالأمس، وبشـكل غير متوقع دبت الصرـخات تكتسـح الأحياء، وفي مقدمتهم أخوها، وهم يهرولون بسرـــيالية، قامت بتتبعهم حتى اخترقوا فجاج الغابة، بدأوا بالصـــياح وتخويف بعضـــهم البعض، صرخت عليهم حتى جف حلقها، وطلبت منهم الرحيل على الفور، لكن ما من مجيب، وبالصدفة تم العثور على كوخ الطين الصغير، توسعت حدقة أعينهم وهم يتقدمون نحو ذلك الكوخ، وفي نفس الوقت أبصرت دراجتها مسندة على جذع شجرة فارعة الطول، متشعبة الأغصان، قفزت من الفرحة منجذبة نحوها مسحورة غير مصدقة أنها ستجدها مجددا، أمسكت بالمقود وهي تتحسسها من كل الجوانب كأم تتفقد جرح ابنها الذي ســـقط على ركبتيه، كان هناك انبعاج طفيف في العجلة الأمامية التي ذكرتها بالاصـــطدام في ذلك اليوم الذي فتحت عيناها ووجدت نفســـها في كوخ ذلك الكائن الغريب، تســاقطت بضــع أوراق من أعلى الشــجرة، رفعت رأســها

حتى ارتعبت من هول المنظر، رأت ذلك الكائن معلقا في الشجرة بصورة أوضح وهو يحدق إليها، فصرخت بأعلى صوتها: أهربوا، أهربوا. ركبت دراجتها بتوتر شـــديد وشـــقت طريقها المليء بالمنعرجات، وإذا بالدراجة تنحرف باتجاه واد عميق يقبع أسفل منحدر شاهق، تركت دراجتها تسقط على الأرض، وتدحرجت على ضفة المنحدر، حتى اقتربت من السقوط، وقبل أن تلقى حتفها، تمسكت بحافة المنحدر، وتركت جسـمها يتدلى للأسـفل، مد يداه وسـحبها بقوة، حتى وضـعها في ضـفة الأمان، ابتعد قليلا، وهو يحدق إليها، وهي تحدق إليه مذهولة، مضت لحظة صمت مخيف، كان أغرب كائن صادفته في حياتها، لديه تصرفات إنسـان، لكنه قصـير ويغطيه شـعر كثيف، إحسـاس دفين تغلغل في أعماقها، وسرت القشـعريرة في بدنها، خالجها صـوت يهمس لها أن هذا الكائن مسالم، لا يريد سوى أنيس لوحدته وعزلته وسط هذه الغابة الفارغة الشاسعة، تقدمت نحوه ببطء شـديد، لكنه اسـتدار فجأة وكأنه سـمع قدوم موكب من الغرباء، وفر هاربا بسرعة قياسـية، حتى صـعد على أقرب شـجرة واختفى بين الأوراق، أتى الأطفال، وفي مقدمتهم أخوها الذي اقترب منها ليسـاعدها على الوقوف قائلا: ماذا حدث؟ هل أنت بخير؟ سـمعناك تصرخين بعد أن ابتعدت بدراجتك عنا .

- آه، نعم، لقد رأيته، رأيت ذلك الكائن العجيب .

- رأيته؟ أين؟ أين؟

- كان هنا وأنقذني مجددا، لكن بعد أن سـمع بقدومكم اختفى وسـط الأشجار.

التمعت عينا أخيها وكأنه تذكر شيئا، ثم أخرج من جيبه صندوقا صغيرا أسودا، وأردف قائلا: أنظري ماذا وجدت وسط ذلك الكوخ .

فتحت فمها من الدهشة، وكأنها رأت كنزا ثمينا .

- هيا افتحه ماذا تنتظر؟

قام أخوها بفتح الصـــندوق، وصـــدر منه لحن رقيق، كان بداخله دمية راقصـة الباليه، فجأة سـقطت صـورة من الصـندوق، حملتها بيديها المرتجفتين حماســا، ألقت نظرة إليها فأصــابتها الدهشــة، كانت صــورة لثلاثة أفراد، رجل وامرأة وفتاة صغيرة .

أســدل الليل ســتاره، كانت في غرفتها تتأمل الصــورة وهي تســتمع إلى اللحن الذي يتسرـب من الصـندوق، سرحت بأفكارها وهي تتذكر نظرات ذلك الكائن وكيف أنقذها مرتين من الهلاك، قررت حينها أن تعود إلى الغابة وتبحث عنه.

اسـتيقظت مع بزوغ الفجر، في الحقيقة لم تنم مطلقا من شـدة التفكير، خرجت باتجاه الغابة، إلى أن وصـــلت إلى ذلك الكوخ، كان الرعب يتملكها، تقدمت نحو الباب، وبعد تردد طويل، طرقت الباب وانتظرت، لكن ما من مجيب، دفعت الباب حتى أصـــدر أزيزا مخيفا، فدخلت وكانت تحمل معها الصـندوق الأسـود كي تعيده إليه، لكن كيف لكائن مثل هذا أن يعيش في كوخ كهذا، وأن يمتلك هذا الصـــندوق العجيب، كيف لهذا التناقض أن يجتمع مع بعضه، لا بد وأنه وجده في مكان ما، مستحيل أن يكون ملكه، بدأت تتأمل تلك الفتحة الضوئية حتى سمعت أزيز الباب، حينها عرفت أن ذلك الكائن قد دخل

للتو، بلعت ريقها بصعوبة، والتفتت بهلع شديد، وإذا به واقف يحدق إليها، تشجعت لتخرج بعض الكلمات كي تلين الوسط، بعدها تلعثمت بإصدار صوت خرج بصعوبة: معذرة، هل تستطيع التحدث كالبشر أعني، أنا ممتنة جدا لإنقاذك لي، وآسفة لردة فعلي تلك، أظن أنني جرحتك حين فررت منك، أردت أن أعيد لك الصندوق الموسيقي، وأكرر أسفي على إزعاجك. بعدما أتممت كلامها، خرج صوت هادئ من أعماق ذلك الكائن، ونطق أمام عينيها المنبهرتين: لا تأسفي، فردة فعلك طبيعية، أنا مسخ مخيف، وكل من يراني سيفعل ذلك، شكرا على زيارتي وإعادة ذلك الصندوق الذي يعني لي كل شيء.

- لكن، أنت تتحدث كالبشر، كيف يمكن ذلك، مستحيل، من أنت؟ أرجوك أخبرني ما قصتك؟ وما قصة ذلك الصندوق؟

- حسنا، هوني عليك، تفضلي واجلسي لأحكي لك ما يثير فضولك، فقصتي طويلة. ما حدث لي في ذلك اليوم قد قلب حياتي رأسا على عقب.

- أي يوم تقصد؟

- اليوم الذي تحولت فيه إلى هيئة مسخ .

- ماذا؟

لقد كنت إنسانا طبيعيا، ولدي عائلة، كنت أنا من في الصورة مع زوجتي وابنتي، حتى أتى ذلك اليوم الأسود.

في كل يوم كنت أقود سيارتي في طريقي نحو منزل والدتي التي كانت مريضة، وأداوم على زيارتي لها، وأشتري لها الدواء وكل ما يلزمها من أكل

وغذاء، كان الطريق طويلا تتخلله الغابات الكثيفة الأشـــجار، إلى أن أتى ذلك اليوم الموعود حيث وبالصدفة رأيت مجمعا عسكريا، أثار فضولي، توقفت عن المســـير ونزلت من ســـيارتي، دخلت عبر الغابة، ورأيت صـــفوفا من الجنود مصـــطفين حول مركب زجاجي أشـــبه بالفقاعة، ورجال يلتحفون البياض، كان منظرا خياليا، كنت أحدق بغرابة عن كثب، إلى أن صرخ علي أحد الجنود من خلفي، أخافني كثيرا، وقال لي: أخبرني هل أنت منا؟ أجبته: لا، لقد كنت في طريقي وبالصـــدفة رأيت هذا البناء، فاســـتغربت تواجد كل هؤلاء الجنود، وأتيت من أجل الاستكشاف لا غير. قبل أن أتمم كلامي، أتتني ضربة قاضية في مؤخرة رأسي، أفقدتني الوعي وتلاشى كل شيء عن ناظري، عندما فتحت عيناي، كان المشـــهد فظيعا، كنت داخل مكان غريب، عبارة عن مختبرات كيميائية، وســـوائل وتفاعلات تتكاثف في الأرجاء، حقن مرماة هنا وهناك، لم أفهم شـــيئا، إلى أن أتى إلي رجل برداء أبيض، كان يبدو كالأموات، وبدأ يتحسس رأسي ويقلب عيناي، وأنا أراقبه مكبل اليدين والقدمين على سرير معدني، مطبق الشـــفاه، وهلل بصوت عال: هذا الجسد ملائم، ثم أخذ حقنة وغرزها في ذراعي، سحب بعضـــا من الدماء، وذهب. كنت أنوح من شـــدة الألم والغضـــب، ولم أكن أعلم أنني كنت في مركب أبحاث سري لتحليل الجينات والخلايا الجذعية، وهذه المختبرات لتجارب في عمليات التهجين، عن طريق الحقن بين سلالتين متقاربتين، أقصد بين القرد والإنسان، كنت أنا الضحية وفأر التجارب، حيث بدأت أسمع صـوت القردة وهي تصرـخ تحت تجاربهم المخزية، والمثيرة للاشـمئزاز، ليس في قلوبهم رحمة، خدروني وغبت لساعات تحت رحمتهم، وهم يفعلون بجسمي ما يشـــاؤون، فتحت عيناي لأجد نفسيـ مسـخا متحولا، تقلص حجمي وغطى جسمي شعر كثيف، بعدها ألقوا بي في الغابة بعد الانتهاء مني، نفضوني كالغبار

بعد استغلالي لمصالحهم، ولا أعلم كم ضحية سقطت بين مخالبهم، تدمرت، سحقت، تهمشت وانعزلت عن عالم البشر كنت أختبئ من الأطفال لكي لا أتسبب في إفزاعهم، وأهرب من غابة إلى غابة، ذلك الصندوق الموسيقي كان هدية لابنتي في ذلك اليوم، ومن في تلك صورة هم عائلتي.

حينما أتمم كلامه سالت من عينيها الدموع، انصدمت من قصته المحزنة، كيف لهؤلاء الوحوش أن يدمروا حياة إنسان بريء، أين الرحمة؟ هل أصبح الحجر أحن وأرحم من البشر، حتى الحيوانات ترحم بعضها، لا يمكنني أن أقول عنه مسخا أو وحشا، فالوحوش الحقيقيون هم هؤلاء المرضى الذين فعلوا له مثل هذه الأعمال المخزية، قالت له بصوت مخنوق العبرات: وأين هي عائلتك الآن؟ هل قاموا بالبحث عنك؟

- لقد كنت أراقبهم عن كثب بين حين لآخر، إلا أن زوجتي بعد معرفتها باختفائي، أصابها الحزن الشديد، وتوفيت بعد أيام من شدة الاكتئاب، ولا زالت ابنتي تتعالج في المستشفى من آثار الصدمة، الآن قد كبرت وشحب عودها، ووهن جسدها .

سألته باستفسار: لماذا لم تقم بزيارتها؟ ولم تبح لها بقصتك .

- لقد حاولت مرارا، لكنني تراجعت، فسحنتي كفيلة بأن تصيبها بالإغماء، إضافة لصدمتها فقد أصيبت بمرض النسيان، لأن دماغها لم يتحمل الصدمات، لذلك قام بابتكار هذا المرض، كي تستطيع تجاوز الماضي والمضي قدما.

- جاءتني فكرة، لم لا أكون صلة وصل بينكما، سأذهب إلى المستشفى وأحاول مساعدتها على استرجاع ذكرياتها.

- هذا سيسعدني كثيرا، سأكون ممتنا لك على صنيعك هذا، ولا تنسي أن تأخذي معك الصورة وصندوق الموسيقى، عسى أن تتذكر شيئا .

أخذت الصـندوق وودعته، إلى أمل لقاء قريب، بعدها عادت إلى المنزل، وأمام توبيخات أمها المتلاحقة، أغلقت باب بيتها، و بدأت تفكر في طريقة لتنفيذ المهمة، بعدها قررت أن تزورها، وترى إلى أي مدى ستؤول إليه الأمور .

في الغد ذهبت بدراجتها الهوائية بعد أن أصـلحت عطبها باتجاه المسـتشـفى الذي كان بالقرب من السـور القديم، وهو عبارة عن بناية قديمة تبدو شـبه مهجورة، كان المدخل يؤدي إلى بهو ضـيق وطويل، دخلت ببطء، وسمعت صوتا يناديها: عذرا يا صغيرتي، في ماذا يمكنني مساعدتك؟ التفتت إلى صـاحب الصـوت، كانت عجوز طاعنة في السـن، تجلس في مكتب الاسـتقبال، وأمامها جبل من الأوراق المتناثرة على المكتب، اندفعت نحوها وأخبرتها بمواصـفات الفتاة التي تبحث عنها، تنهدت العجوز تنهيدة عميقة وأجابتني وسـمات الحسرة ترتسـم على ملامحها: تلك الفتاة هربت منذ زمن بعيد بعد اسـترجاعها للذاكرة، لأنه قد تم العثور على رسـالة مخبأة تحت سريرها تؤكد ذلك، بعد أيام قليلة وجدها مجموعة من الغرباء مرماة على شاطئ البحر، بعد أن ألقت بها الأمواج جثة شاحبة .

انهارت الطفلة بالبكاء، وقامت العجوز باحتضـانها، فقالت لها: هل بإمكاني الحصـول على رسـالتها؟ لأنني وجدت أحد أقربائها، وهو ينتظر بفارغ الصبر الحصول على أخبارها، أو أي شيء يعود لها .

- بالتأكيد عزيزتي، انتظري لحظة .

ذهبت العجوز، وبعد لحظات عادت وفي يدها الرسالة، فمدتها إليها: خذي يا عزيزتي، أطلب من الله أن يلهمكم السلوان عسى أن تتجاوزوا هذه المحنة .

أخذت الرسالة إلى أبيها بعد أن قصت عليه خبر ابنته المأساوي، أمسكها بيديه المرتجفتين وبدأ بقراءتها :

أبي العزيز، أين أنت؟ وماذا حدث لك؟ لقد كنا عائلة رائعة، كيف وفي لحظة تدمر كل شيء أمام عيناي، هل تركتنا؟ كيف رحلت هكذا بدون ترك رسالة أو حتى علامة تؤكد على عودتك، لقد توفيت أمي بسببك، وغرقت بعدها في تعاسة لا مخرج منها، لم تعد الحياة تعني لي شيئا الآن، لقد أصابني الاكتئاب بعد استرجاع الذاكرة، ما أقساك إن تركتنا، وما أقسى الحياة إن تركتنا .

بعد انتهاءه من القراءة، ذرف دموعا غزيرة، وبدأ يشهق ويصرخ بحرقة شديدة، كان منظرا مأساويا، ذكرها بيوم فقدانها لأبيها، أحست بألمه لأنها تعرف إحساس الفقد، اقتربت منه وضمته بقوة، كان يبكي كطفل صغير، بكت معه وآنسته حتى أتى المساء، ودعته بابتسامة تضمر الحزن، وعادت أدراجها إلى البيت .

مضت الأيام، وهي تداوم على زيارته كل يوم حتى أصبحا كالأصدقاء المقربين .

أتى يوم كالصاعقة، إذ كان قرار رحيلهم مفاجئا، قررت أمها الرحيل إلى بلد آخر بعيد، لأنها وجدت مكانا أفضل، بحكم أنه كان موطن طفولتها .

بعد عشر- سنوات، درست، وتخرجت من الجامعة، أصبحت أستاذة ناجحة، حينها قررت المدرسة المبادرة برحلة تربوية لأحد البلدان، فوقع الاختيار على

بلدها، كم كانت مسرورة لأنها ستزور وأخيرا موطن طفولتها، لتستنشق منه عبق الذكريات الحافلة بالمغامرات الجنونية .

قطعت بهم الحافلة مسافة طويلة، فو صلوا أخيرا بعد أن أنهكهم تعب الرحلة الربيعية، كانت لحظة خروجها من باب الحافلة كالحلم السابح وسط الغيوم.

أمضوا اليوم كله يتجولون في أنحاء البلاد، كانت الأستاذة مرشدتهم ومعلمتهم في الآن نفسه، حتى وصلت إلى حيها القديم لمعت عيناها من الحماس، لأنها تذكرت الشيء الأهم، كيف نسيت ذلك؟ أيعقل؟ أخبرت تلاميذها أنه توجد غابة كثيفة الأشجار بالقرب من الحي. شقوا طريقهم نحوها، فسمعت أحد تلاميذها يقول: أين هي الغابة؟ أين؟ أين؟

صعقت من النظرة الأولى حين نظرت أمامها، لم تعد هناك غابة، بل تحولت إلى مجمع بنايات عملاقة، ولا شجرة واحدة تركت. سألت نفسها: إلى أين يكون قد ذهب؟ إلى أين؟ بالتأكيد سيكون قد وجد غابة أخرى ليستقر فيها، فهي ليست أول غابة ولا الأخيرة، مضت سنوات عديدة يا صديقي، ألن نلتقي مجددا في يوم من الأيام صدفة، لكن لم تعد لدي تلك الدراجة الهوائية التي جمعتنا، على أية حال، أينما كنت، أتمنى أن تكون بخير .

أخرجت صندوق الموسيقى وفتحته، أخذت تتأمل راقصة الباليه التي تلف وتدور، وهي تلف وتدور مع أفكارها التائهة.

حورية السماء

على نار هادئة وضـــعت ربيعة قدرا من المياه وهي تحدق في النيران المتوهجة وقلبها يحترق، تذكرت ابنها أحمد الذي هاجر بلا عودة راكضـــا وراء لقمة العيش، متدفقا نحو التيه إلى أمل عدمي، بحثا عن مرتع للالتجاء من لعنة الفقر، تأوهت منتفضة من قطرة مياه حارقة صبت على خصرها الأهيف، وانتصبت تترجرج بخطواتها الضائعة، غائمة بين حلم ضبابي وواقع معتم، كانت الرسالة الباكية التي تنضب في كلماتها بإشراقة الأمل هي آخر شيء أودعه ابنها ذات صباح فوق منضدته المنزوية في غرفته الصغيرة عندما ترك فراشه الدافئ ليلتحف الصـــقيع، شـــاقا طريقه الملغومة ببراثن الذئاب المميتة. أصـــبح البيت فارغا والقلب جافا ومترعا بالجمود والإنهاك، ذهبت تبحث في خزانة ملابســـه عن رائحته المعتقة بالقهوة التي أدمن على شربها كل صباح كي يبحث عن عمل وينهض بأمه التي تعبت وسهرت على راحته، فبعد وفاة والده كل أبواب الرزق صدت في وجوههم، لم يعد هناك معيل يعتقهم من رحم الجوع والمعاناة.

أخذت تفتش في جيوب ســـترته الجلدية فعثرت فجأة على صـــورة قديمة بالأبيض والأسود، كان الطفل في الصورة ناصع البياض وهو في حضن أبيه الذي كان يعانقه بشدة ووجهه يشرق بابتسامة عريضة شطرت وجهه إلى نصفين حتى برز ضرســـه الخلفي وراء شـــفته العليا، أطلقت شـــهقة كتومة وضـــمت الصـــورة إلى صـــدرها مغمضـــة عينيها تقلب في ســـنادين الذاكرة عن تلك الأيام المشرقة التي سرحت بها إلى عالم دافئ كإطلالة الشمس وآمن كهمسة النسيم، تدفقت دموع دافئة على وجنتيها وتساقطت على كنزتها الصوفية المهترئة، كان يوما عصيبا مر من دون فلذة كبدها، لم تعتد على الوحدة وذلك الصمت الذي يتردد بين الجدران الصماء، كان البيت يضم ثلاثة أفراد، حتى أصبح العدد فردا واحدا في منزل منعزل عن رحمة آدمي، كان الخلاء هو كل ما يحيط بالمنزل،

عندما يسدل الليل ستائره تبدأ أصوات الذئاب تعلو عند ارتسام قرص السماء الوامض الذي يبدو كفطيرة ليلى أو ككسرة خبز تلتهمها الأعين الجائعة .

في كل صـباح تطل من شرفتها الطينية الضـيقة آملة أن تجد ابنها عائدا إليها بتلك الابتسامة التي تشرح صدرها وتنقذها من أنقاض الوحشة والشوق، لكن ما من مجيب لآمالها وحلمها بلقيا ابنها الضـــائع في ركن من أركان هذا العالم الشنيع.

كانت خائفة من مجيء ذلك اليوم الذي ســـيتركها فيه بين الجدران وحيدة، مع رســـالة تنضـــب بالوعود والعودة محملا بمفاتيح تفتح أبواب الثراء وتوصد وراءها أبواب التعاسة والبؤس .

كان الانتظار طويلا والأيام تمضي ـ ببطء وهي تنتشـــل معها ابتســـامتها، حمرة وجنتيها، نور وجهها وبريق عينيها، أطفأها الزمان وأضرم النيران في ســـحنتها، فأصبحت ممتقعة شاحبة .

مضـت بضـعة أشـهر حتى انقضـت المؤونة وقل الزاد، لكن ابنها لم يعد بعد حتى سقطت على الفراش وباتت لا تتزحزح عن فراشها، وهي في شهقاتها الأخيرة وقد أشرفت على فقدان روحها، باغتها صـــوت لم تميز مصـــدره ســـوى بصورة ضبابية غير محددة، ومن ثم أغمضت عينيها وتركت نفسها تنجرف عبر السواد.. ما هذا الحلم الغريب؟ أين أنا؟ استفاقت وفتحت عينيها بتثاقل وهي تحملق مندهشة من المكان الذي يتصور أمام عينيها وصورته تتوضح تدريجيا، ثم جالت بعينيها ثنايا المكان، حتى أدركت أنه ليس بحلم حين شـــعرت بحرقة في بلعمها من شـــدة العطش الذي يتملكها، فأجفلها صـــوت نباح كلب ضـــخم،

ارتعبت من اقترابه منها، في نفس الوقت صدر صوت أنثوي هامس: اصمت يا هذا، ستوقظ السيدة .

حملقت ربيعة في تلك المرأة التي كانت تخاطب كلبها بهمس، حتى أدهشها جمالها الساحر، كانت زرقاء العينين ذات شعر أشقر منسدل على كتفيها، حسناء الوجه والنور يتلألأ من محياها، تلعثمت ربيعة وهي تهذي في كلامها: من أنت؟ هل أنا في نعيم؟ انبعث صوت رقيق من تلك الفتاة: سيدتي أقدم لك نفسيـ أنا نارمين ممرضة في معسكر طبي متنقل، بالأمس كنا في طريقنا نحو المدينة حتى داهمنا الليل ونصبنا خيامنا في هذه المنطقة، كي نرتاح حتى الصباح ونكمل مسيرتنا، إلا أن هذا الكلب المدرب أيقظنا في منتصف الليل و جذبني خارج الخيمة، استجبت له وتتبعت خطواته نحو المكان الذي اشتم فيه رائحة بشري على قيد الهلاك، وعندما اقتربت، رأيت منزلك الطيني، بسرعة علمت أن أحدا بداخله في خطر، دخلت وبعدها رأيتك طريحة الفراش، فاتصلت بفريقي الطبي كي يأتي وينقلك إلى مخيمنا ليمدك بالإسعافات الأولية .

قالت ربيعة بصوت حنون دافئ: الحمد لله، يا لها من معجزة، لا زالت الرحمة تمطر من السماء، ظننت أنه لم يعد لي أمل في أن ألتقي بابني مجددا، لكنني الآن أحس بالأمل يتجدد ودعواتي استجيبت، أشكركم من بعد ربي لقد أنقذتم حياتي .

أجابت نارمين: لا داعي سيدتي، فهذا واجبنا، أتمنى أن تلتقي بابنك في القريب العاجل .

- إن شاء الله .

مضى أسبوع على هذه الحادثة، وفي اليوم الأخير حدث ما لم تتوقعه ربيعة، حين كانت تنظر من الشرفة كما اعتادت كل يوم، إذ بطيف ابنها يشق طريق الغابة محملا بكيس كبير على كتفيه، لم تستوعب بعد عودة ابنها، حتى توضحت لها صورته وهو يقترب، لم تشعر بنفسها إلا أن ركضت بأقصى قوتها حتى بلغت أحضان ابنها وعانقته بشغف وهي تبكي وتبلل كتفي ابنها العريضين بالدموع .

قال لها أحمد: أنا آسف يا أمي، تركتك من دون أن أعلن عن رحيلي عنك، لا تعلمين كم حجم الشوق الذي دب في أوصالي بعيدا عنك، كنت سأهلك يا أمي في منتصف الطريق وأنا أبحث عن الرزق، باغتني الجوع وأنهكني العطش، ففقدت الوعي، لكنني عندما استفقت وجدت نفسي- قرب ممرضة حسناء قد أنقذت حياتي، وساعدتني بعدها أن أجد سقفا يحميني وعملا أسد به رمق احتياجاتي، كنت خائفا جدا أن لا أجدك بخير، كم دعوت الله كثيرا أن يرعاك وينجيك من الجوع والعطش .

قالت ربيعة: حبيبي لقد استجيبت دعواتك، كنت سأموت في آخر المطاف، لكن السماء أمطرت علي برحمتها ورمقت عطشي- وجوعي، لقد حط هنا معسكر طبي ومدني بكل ما أحتاجه من زاد ومؤونة لكي أعيش لبضعة أيام .

تلألأت الدموع من مقلتي أحمد وقال لها: باركي لي يا أمي، لقد وجدت عروسا. أجابته والبغتة على محياها: أحقا؟ من هي عروسك؟

- تلك الممرضة التي أنقذت حياتي.
- هل هي جميلة؟

- لا بل حسناء فائقة الجمال، زرقاء العينين وشقراء الشعر، اسمها نارمين .

دمعت عينا ربيعة وهمســت في أذنيه قائلة: تلك العروس هي الحورية التي نزلت من السماء وأنقذت حياتي وحياتك .

يوم البحث

أنا الوجه الآخر للعملة الملقاة على الأرض، أنا الوجوم في زمن الثرثرات والحيوانات الناطقة الغارقة في بحر السفاهة، أنا شبح اليأس الذي يرنو إلى حلم مادي يتحقق بمعجزة .

استيقظت صباحا ونظرت إلى عقارب الساعة الجدارية، كانت هامدة، ياإلهي، ليس مجددا، لقد تعطلت الساعة بعد أن غططت في نوم عميق، ولم تقم بتنبيهي في الوقت المحدد، لدي الكثير من الأشغال التي تركتها البارحة مكد سة على مكتبي اللعين، كم أكره عملي الممل الذي يقتل فقرات ظهري، كم أكره مديري البغيض، كيف بإمكاني إيقاف الزمن والاستمتاع بلحظة من اللحظات كإنسان طبيعي، المذلة والأيام السوداء تلازمني بين ليلة وضحاها، حتى قهوتي لا أستمتع بمرارتها كي أصحو بالكامل، لتنتزع مني تلك الغمامة الصباحية، من يحس بك، بل من سيستشعر بوجودك، دائما أحاول التخلص من تلك الغصة الجاثمة على صدري ولا أستطيع، أحاول الفرار إلى نقطة الانتشاء، وأختفي عن هذا العالم الآلي المتحرك في واجهة واحدة، لو كان بيدي لغيرت طريقة العيش الروتينية التي يخلقون منها أملهم الوحيد وسعيهم نحو لقمة العيش .

ركبت سيارتي الرديئة، وبدأت عجلاتها تنهش ناصية الطريق ببطء كالسلحفاة، اللعنة، ما هذا الفأل السيء مجددا؟ لقد تعطلت السيارة، حتى أنها لم تبتعد كثيرا عن عتبة منزلي، كل يوم يتكرر نفس السيناريو، اليوم كان أسوأهم، ما الذي يجب علي أن أفعله الآن، سأطلب من أحدهم أن يوصلني وهو في طريقه... هاهي سيارة قادمة.

- المعذرة سيدي، هل بإمكانك إقلالي بسيارتك إلى العمل؟

- أغرب عن وجهي، لا ينقصـــني ســـوى أنت، يكفيني ما في اليوم من مشاكل.

- حظا تعيســا با صــاح، لســت الوحيد من تمتلك ســيارة في هذا الكون الواسع، إذهب أنت وسيارتك إلى الجحيم.

فجأة رنين خافت أشــبه بمعزوفة بيتهوفن، اســتدرت فلمحت حافلة مزركشــة تلمع بكل الألوان، والسائق يبدو بكامل وسامته بزيه الأسود كقهوتي الصباحية، حتى أنه بدأ يشير إلي بيده، أشرت بسبابتي إلى صدري: أناا!؟

فطأطأ برأسه وكأنه يقول: "أجل ."

أحسست بسعادة غامرة وكأن دورة الأفلاك انعكست لصالحي، سحبت نفسي إلى الحافلة مسحورا، انفتح الباب على مصراعيه بقدرته العجيبة، صعدت الدرجتين ووقفت أحدق في وجه السائق البشوش، وأنا أتمتم له بكلمات شكر، وأربت على كتفه ممتنا، أخرجت بضــعة نقود لأعطيها له، فرفض باســطا راحة يده إلى جهة المقاعد قائلا: حللت أهلا ونزلت سهلا، أنت الآن في حافلة الأحلام، حيث يتوقف الزمان ويتغير الطريق .

وقبل أن أطلب منه أن يسرع في إيصالي إلى مكان عملي، خطف بصري وجه ملائكي وخصــلات شــعر كلون الشــمس، انعقد لســاني، وســقط قلبي على زرقاوتيها، ألقتني بتعويذتها في شــباك الحب، فعكســت خطواتي أســير بل أطير باتجاهها، قفزت إلى المقعد بجانبها، هائما في قسمات وجهها وفي كمالية هيئتها، وانطلقت الحافلة تسبح بعين الأمكنة وتجتاز الأزمنة، التفتت إلي فجأة وتبعثرت نظراتي في حيرة، ارتبكت وحولت نظراتي إلى ســقف الحافلة، بادرت بالنطق وقد

كانت كلماتها كلحن الحنين إلى الزمن الجميل، دقت على طبول آذاني ولفلفت شرايين قلبي كقيثارة لتعزف عليها لحن الحلم الذي ألهف للحصول عليه.

"أنت محظوظ، فهذه الحافلة لا تنقل أي شـــخص". رمقتها بنظرات خجل وأجبتها بتساؤل: " ماذا تقصدين؟ عن أي حظ تتحدثين؟ فمنذ دخولي إلى عالم الاندماج بالشـــغل والاســـتقلال بالذات، لم أجد يوما مبشرـــا بالخير، كل أنواع التعاســـة والإنهاك انكبت علي، حتى أنني لم أجد الفرصـــة في أن أعثر على توأم روحي ."

"بلى أنت الآن في حافلة الأحلام، وستصل إلى مكان حسن المنظر، يريحك من عناء الأيام الرتيبة التي أثقلت كاهلك ."

"أي مكان تقصدين، هل هي بقعة من بقاع الأرض القريبة ."

"لا ليست في الأرض، أنظر من النافذة ."

"يا للهول، نحن نحلق بين الغيوم، مستحيل سنسقط ."

"هون عليك، هذه حافلة لا تسير بل تطفو بين الغيوم، ووجهتها أرض لا تشبهها أرض من بقاع الأراضي التي تعرفها، لا تخف كل شيء سيسير على ما يرام ."

بقيت تحدق بي وهي تبتســـم وأنا تائه في عينيها الســـماويتين، فجأة، بدأت الحافلة تقترب من بقعة ســـطعت بين الغيوم، كانت حقا بقعة عجيبة، كنت أتخيلها كالنعيم خضرـــاء، لكنها كانت بيضـــاء من مشرـــقها إلى مغربها، تهت وتاهت عيناي، حطت الحافلة عليها، نزلت منها ودســـت بأقدامي على تلك الأرض، كان ملمسها إسفنجيا، وأنا أتحسسه بيداي كأنني ألامس القطن، لمحت

أمامي سريرا أبيضـــا، وفي نفس الوقت أحســـســـت بالنوم، ودخلت في دوامة الإعياء، استلقيت على السرير وسلمت نفسي لنوم عميق .

ماذا يحدث؟ أصـــوات تعلو لتوقظني من النوم، لا ليس النوم بل موت مؤقت، بدأت أحدق في ثنايا المكان، إنه يبدو كالمســـتشـــفى، رجال ونســـاء يحومون حولي ملثمين بكمامات، رحت أسترجع الأحداث، ماذا وقع؟

نعم تذكرت، حين كنت أطلب من ذلك الرجل الغليظ أن يوصـــلني إلى مكان العمل، ثم بعدها لم أنتبه حتى صـــدمتني ســـيارة، ارتفعت إلى الســـماء وســـبحت بين الغيوم، أقصـــد ارتطمت بالأرض، يا إلهي هل أعاني من كســـور خطيرة، فالضـــمادات تغطي مســـتوى الذراعين والســـاقين، أنا لا يهمني حجم الخسائر ولا العمل، بل الأهم هو أن لا يكون كسري خطيرا بقدر ما سأحصل على شـــهادة طبية قد تمتد لأشـــهر، يا لها من راحة، عذرا يا طبيب، أو أي واحد منكم...أتت إلى بقدميها، لا بد وأنني لا زلت أحلم، نفس العينين الزرقاوين الحالمتين، خاطبتني بنبرة رقيقة: لقد استيقظت، بالسلامة والعافية .

نسيت ما كنت سأقول وما سأقول، وتهت في عينيها الباسمتين حتى بدأ هاتفي بالرنين ولم يتوقف، حملته ذات الزرقاوتين، وضغطت زر التشغيل، لا بد وأنه المدير، يا للسعادة، لا شيء الآن سينكد علي العيش، سأستيقظ وقتما أشاء، وأشرب قهوتي على مهل، لكن كيف ســـأشربها أو بالأحرى كيف ســـأعدها، يداي ورجلاي مكسورتان، أقصد أتمنى أن يكون كسر طفيف يجبر بسرعة... قاطعت أفكاري المتضاربة بصوتها وهي تجيب: لا يوجد شيء خطير، مجرد اصطدامات بسيطة وسيعود سكرتيرك إلى عمله بعد أسبوع .

"مااااذا؟ لا توقفي، اللعنة ."

"هل قلت شيئا سيدي؟"

"لم أقل شيئا ."

"حسنا، بالشفاء والعافية، بالمناسبة أنت محظوظ جدا، فالحادث لم يسبب لك خسارة في شيء ."

"هذا مؤسف، عليه اللعنة هذا الحظ ."

صاحب الظل الطويل

الفتى المجهول صاحب الظل الطويل، هذا ما ينادونه به حين يصعد إلى خشـــبة المسرـــح بقناع المهرج، لطالما كانت ملامحه خفية وحياته سرية عن معجبيه، هو فقط يصعد إلى الخشبة بملابس مبهرجة ووجه مخطط بابتسامة عريضـة حمراء، ويقوم بإيماءات وتعابير تعكس فن إتقانه لعالم الضـحك، حيث تنهال عليه القهقهات والتصـــفيقات من كل جانب، وعندما تنتهي الحكاية الصـــامتة، ينحني مبتســـما أو كما يتخيل لهم، وينســـدل الســـتار على شرفات الناظرين، فيختفي بعدها .

كان منفردا بشخصه، منعزلا عن عالمه الغريب، يذهب إلى اللامكان ثم يعود بومضة سحر، حين تسلط عليه تلك البقعة الضوئية الزرقاء، يبدأ بحركاته البهلوانية ليبهج قلوب الأطفال وأرواح الكبار .

عاد أدراجه بحذائه الرث ذو الرقبة العالية إلى شاحنة منبعجة العجلات وخربة الأطراف، اتكأ عليها كأنه لم يجد كنفا يسند عليه رأسه ويطبطب جرحه الغائر، كانت الدموع تفضح تقاسيم الأصباغ التي أخفت تجاعيد وجنتيه بفرط البكاء ولفحات الأسى العاتية، امتزجت بشـعلة نابضـة أحرقت صـدره وفحمت روحه الكحلية الظلماء، مواء قطه الأســود المشـعث أيقظ يتم قلبه، اقترب منه وارتمى عليه حتى دفن بين أحضـــانه، همس له بخفوت: "هل أنت جائع يا صـــديقي؟ دعنا ندخل إلى الشـــاحنة فالجو قارس، ولنجد شـــيئا نرمق به ظمأ أمعائنا التي تزمجر داخلنا ."

اتخذ صـــاحب الظل الطويل من الشـــاحنة ملجأه ومكانه الخفي الذي يأويه من مذلة الحياة القاسية، وأثثها من الداخل بالأفرشة البالية التي وجدها في مطرح النفايات المحيطة بالمكان، أخرج علبة الســـمك من مخبئه المعتاد،

وتقاســـما الطعام كما يفعلان كل ليلة، قبل أن ينام، اتجه نحو مرآته المحطمة وأطل بملامحه المكســـورة إلى تلك الأصـــباغ المتبقية التي تكســـو تعابير وجهه الحقيقية، أحضر ـ منديله الأبيض وبلله قليلا، ثم شرع يمسـح الألوان التي تبهج الأطفال، وظهر تحتها وجه يفجع القلب ويدمي العين، نصـــف وجهه محترق، وكأن النيران أضرمت في شـــقه الأيمن وشـــوهت جمالية ملامحه و أطفأت لمعة عينه الخضراء التي انهمرت منها دموع مريرة، جال بعينيه الأرجاء وهو يبحث عن شيء، كان إطارا يتحلق حول صـورة بالأبيض والأسـود، تأمله بين يديه، وهو يســـترجع حبل الذاكرة المتلف بأوبئة الغد، كان طفلا كأي طفل تبهجه الألوان ويخلق من البســـاطة ســـعادة وحلما بريئا، يســـتظل تحت كنف عائلته التي رحبت بحلمه وتقبلت فكرة أن يكون لديهم طفل مختلف، يحلم برســـم الابتســـامة على وجوه الصـــغار والكبار، كل يوم يملأ وجهه بالفحم، ثم يخرج مهرولا، يتحلق حوله جمع غفير من الناس، ويبدأ بسـرد قصـــصـــه المضـــحكة بإيماءات وتعابير متقنة، يتفنن في عزف الكوميديا على قلوب الأطفال النابضـــة بشعلة الحياة ببدايتها البيضاء قبل السوداء، يمتلئ المحيط بالدندنات تتخللها ضـحكات لا تتكرر، كانت أياما مشـرقة، ومفعمة باللونين الأبيض والأسـود، بين أحضـان الماضي السـحيق الذي كان فيه الأحباء أحياء بقلوب دافئة وأصـواتهم التي تتردد على طبول الآذان كموسـيقى رخيمة تمرر الدفء على قلبك وتهمس لك أن حياتك لا زالت على قيد الأمان.

تشرق الشمس ككل يوم جديد لتتدفق الأشعة عبر الشرفات الصغيرة التي تطل منها الوجوه الصـغيرة منتظرة مجيء الفتى المهرج صـاحب السـحنة المصـبوغة بالفحم، ويتقاطرون سرايا كالجيش من كل جانب، حين يقبل عليهم

بثياب أبيه الفضفاضة كخيمة متنقلة لتتفشى الهتافات والهمسات كالعدوى بين المشاهدين وهم يشيرون إليه ببنانهم وينفجرون من الضحك .

يتأملون بشوق قصته الفكاهية الجديدة التي يمثلها بحركاته البهلوانية من وحي خياله، كان شاسع الفكر والإبداع، ساحرا في رسم الحياة والبشرى على الأرواح الضبابية كشمس أشاحت عنها الغبار الظلامي لتعود إلى طبيعتها المشرقة، وتتبدى زرقة السماء ساطعة بهية، أنار العتمة، ورصع البهجة والجمالية على القلوب، كسر الروتين اليومي المجهد للبدن والخانق للنفس.

قادته يداه يوما إلى علبة الكبريت، بعد أن فكر مليا بأن يستخدمها في السحر والحركات الخفية، أمسك أشتاتا من عيدان الكبريت وأضرم فيها النيران، أمام ارتسامها على أحداق عينيه، انبهر من حدة الوهج الذي أضاء قسمات العتمة المحيطة به، جنح إلى عالم التيه والسهو، حتى انتصب متأوها من شعلة التهمت طرف أصبعه، بصددها ألقى بكل العيدان على الأفرشة، بدأت ألسنة اللهب تخترق عباب الأرضية وهي تنهش الأخضر واليابس، حتى تكاثفت النيران في كل بقعة من بقاع المنزل، نشبت حريقا مهولا بين الجدران وفي كل الأرجاء، واحتدمت صرخات قوية كدوي الرعد، حاول الفرار من براثن الجحيم، لكن الحريق بدأ يشتد ويشتد حتى زج به في سجن الحمم التي انتشرت مخترقة أفق المنزل، وسطعت الأدخنة الظلماء ممتزجة مع صفاء الأجواء، فوجع الأطفال والكبار من هول المنظر، وهم يحدقون بعيون مرتاعة إلى احتدام الغيام السوداء فوق منزل المهرج .

مضت على الحادثة عشر سنوات وهو يتذكر كيف استيقظ من ذلك الجحيم، ليسقط في جحيم أشد منه بأضعاف، ما تبادر إلى مسامعه أيقظ حس

الجنون والرهبة، في تلك الليلة حين حاول والداه إنقاذه، دخلوا إلى بيته مخترقين ألســـنة اللهب، ووجدوه ملقى على الأرض بعدما أكلت النيران نصـــف وجهه، حاولوا الخروج وهم يحملون فلذة كبدهم، لكنهم لم يستطيعوا، فسمعوا الناس يصيحون بالخارج: ألقوا به من الشرفة فهو بأمان، سنلتقطه.

هذا ما حدث، نجى صـــاحب الظل الطويل، ولم تنج عائلته من براثن النيران .

ت ساقطت دموعه الممتزجة بالأ صباغ على ال صورة التي كانت تجمعهم، ترقطت بالألوان، أخذ يمســـحها بأكمامه والدمع لازال يســـقط من محجريه، بعدها ضمها إلى صدره وغط في نوم عميق .

في الصباح، ذهب ليستعد ككل يوم، ليدفن ملامح وجهه التي قد تفجع الأطفال بأطنان من الألوان التي تبهجهم، ولم ينس رســـم ابتســـامة عريضـــة حمراء .

وســط الأنوار الســاطعة، أقبل عليهم بخفة حركاته البهلوانية، فجأة ثلة من الأطفال اتفقوا على كشف وجهه وحقيقة ما يخبئه عن جمهوره، مستغلين عتمة المكان كي لا يفتضــح أمرهم، صــعدوا إلى الســلم العلوي الذي يؤدي إلى شرفة تقبع أعلى الخشـــبة، وأمســـكوا دلوا ممتلئا بالمياه، فأفرغوه عليه، أمام انبهار المشاهدين، ظهرت ملامحه المرعبة التي خطتها آثار ذلك اليوم المشؤوم، لأول مرة يرى العيون تنظر إليه بنظرة مختلفة، كلها شفقة وألم وتعا سة، قتلته النظرات، وأدمى قلبه بكاء الأطفال، فتهاوى على الأرض والدموع تنهمر بمرارة من جفونه الخضـــاء، في حين وقف الجمهور تجليلا وتعظيما له، وصـــدحت

المقاعد بالتصـــفيقات المتلاحقة، صـــعد جمع غفير من الأطفال إلى الخشـــبة، وتحلقوا حوله يدفئونه بحضـــنهم ودموعهم تنهمر كالشـــلالات على منكبيه، وأخيرا ارتسـمت على محياه ابتسـامة حقيقية نبعت من بياض قلبه الذي يحن إلى زمن عفوي لا تغطيه ألوان الزيف ولا ابتسامة عريضة حمراء .

الخرقاء

الحياة نسـمة تدب بين أوصـال الأطفال والمجانين، هكذا تقول لي دائما جدتي، نحن نعيش كالموتى بجسد يتحرك تحت ضغط الظروف والصراعات من أجل غريزة البقاء، فقط لأننا لا نحبذ كلمة الموت رغم أننا نعيش كجسـد بلا روح، تسـتمد طاقتها من كلمة حب ودفء، ثم تعود إلى حياة البرود والجفاء، نلمح السعادة في عيون الأطفال وهم يترنحون بين همسات الرياح، يسبحون في عالم الألوان بين أجنحة قوس المطر، أو نثرات الندى المتسـاقطة على أوراق الفلين، التي تنحني مثقلة بحملها المعطر بشـذى النسـيم، تلك البسـاطة التي تسعدهم، ذلك العمر البهي الذي يمر كحلم وجيز يرتعش بين الأهداب المطبقة بومضـة سـحر، هكذا يكون العمر الجميل الذي نحسـد الأطفال عليه، أما عن المجانين فقد وضـعوا عقولهم في راحة أبدية، ذلك العضـو الذي يتركب من تلافيف تحمل الأطنان من الذكريات والتجارب التي قد تجحف النفس بما لا طاقة لها، هكذا هم المجانين ينتزعون ببسـاطة ذلك الورم الذي يهدم البشـرية جمعاء، ويعيشون ما تبقى لهم من عمر في صحة وسلام، غير مدركين بمجريات الحياة، وكأن كل شيء يبدو بمنتهى السحر والنعيم .

كنت أتنقل من شرفتي إلى المطبخ ثم من المطبخ إلى غرفتي بخطوات متوترة وسريعة، وأنا أحسـب الزمن الذي مر وكم تبقى من الزمن من أجل اللحظة الحاسـمة، كنت أنتظر هذا اليوم بهلع وخوف مختلطين بالغبطة والسرـور، لا أعلم كم من المشـاعر الدفينة التي تجول في نفسيـ تشـنجت الأحاسـيس، تباطأ الزمن، أنا الآن ألامس شـعور الطير وهو يحرق بجناحيه سـبر السـماء، ويمشـط الفضـاء، ثم يجتذبه حقل مغناطيسيـ إلى عمق سـحيق بين سراديب الأسرار المدفونة تحت الأرض .

"رنين الجرس، يا إلهي، هل أتوا قبل الموعد المحدد، أمي أنقذيني لا أعلم ما الذي سأفعله؟."

"هوني عليك عزيزتي، عودي إلى رشـدك، هذه فقط الخطوبة، ماذا سـتفعلين إن كان زفافك؟"

"هل ذهب أبي كي يفتح لهم الباب؟ ."

"نعم بنيتي، سيصلون بعد لحظات ."

"أمي لســت مســتعدة للقائهم، أرجوك أخبريهم أنني مريضــة، ولا أقوى على مقابلتهم ."

ركضت إلى غرفتي واستوقفني كلام أمي .

"تمهلي، عودي إلى هنا، إذا ذهبت، سألغي هذه الخطبة ."

"لا يا أمي، أرجوك هذا اليوم فقط، لأنني قد أســقط الطبق من يدي، أو قد أفعل تصرـفات جنونية، ســتجعلهم يفرون على بطونهم، أنت تعلمين كم أنا بلهاء بحركاتي المتسرعة ."

"اذهبي، الله يلهمني الصبر، اذهبي واقطعي صوتك، لا أريد أن أسمع ثرثراتك مجددا، أنا من سيزحف على بطني، بسبب تقلباتك المزاجية كالمجانين، سأفقد عقلي قبل أن يلتهم النسيان دماغي ."

وأخيرا، نجوت بأعجوبة، أعلم أن أمي دائما تقف بجانبي وتســاندني، لذلك وكلت لها مهمة الاســتقبال نيابة عني، ســأســترق النظر من فتحة الباب

لأرى فارسي الوسـيم ماذا يرتدي، يا للجمال، إنه القميص الأصـفر الذهبي الذي أثار انتباهي في لقاءنا الأول، ذات أمســـية ممطرة، كنت في طريقي إلى بيت جدتي وقد كان الجو صحوا، لكن سرعان ما تقلبت السماء إلى الرمادي، وبدأت قطرات المطر تنهمر بغزارة على وجهي، ركضت بأقسى قوتي لأحتمي من البلل، لكنني لم أجد ما كنت أســعى إليه، حتى المحلات كانت جميعها مقفلة، وكأن الكون متفق علي، فجأة وأنا تائهة، ألتفت يمينا وشـــمالا، إذ حجب عني الأفق مظلة زرقاء، لا أعلم هل هذا سحر من الأرض أو السماء، التفت، وأول ما رأيته ذلك القميص الأصــفر والوجه الذي عليه أمارات البشــاشــة والنبل، كان ركن الالتقاء هو بداية طريق جديد يأخذك إلى معالم شــيدها القدر، نعم، أحبني حينها، رغم تصرــفاتي الخرقاء وحركاتي الجنونية التي كنت أســقط في شــباكها، لكنه ينقذني منها، وها هو الآن يتقدم إلى خطبتي بباقة زهور حمراء مثل تلك التي بعثها إلي مع رجل البريد، لو يعلم ما حدث لها، لتقدم إلي الآن بزهور ســـوداء تندب حظها الذي جاء بها إلي، لأنني ملأت الإناء الذي وضـــعتها فيه بالسائل المبيض، فاسود لونها بسرعة، وتفتتت ورقاتها رمادا على المنضدة، لكن هذا خطأ أمي التي كانت تضـــع المبيض في قنينة الماء، لا يهم، لن أكرر الخطأ مجددا، ماذا يفعلون الآن يا ترى، سأذهب بهدوء من دون أن يكتشف أمري .

"أمي هل جلس الضيوف؟"

"أيتها البلهاء، لماذا تتكلمين بخفوت؟"

"أنت، ماذا تفعل هنا في المطبخ؟"

"ما بالك توردت وجنتاك، جئت لأطلب كأسا من الماء ."

"أخاف أن أعطيك عوض الماء، السائل المبيض، أنا لا أثق بتصرفاتي ."

"هاهاها، لا شك في ذلك، إذن سأحصل عليه بنفسي ."

"حسنا، لكن هل بإمكانك مناداة أمي؟"

"لماذا؟ بإمكانك مناداتها بنفسك، ولم كل هذا؟ تعالي كي تراك عائلتي ."

"إنني خائفة ."

"من ماذا؟"

"من النظرات التي سترمقني ."

"لا تستصعبي الأمر، كل شيء سيمر على ما يرام، ثقي بي، هيا ."

"لكنك بالأول ستقدمني إليهم واحدا واحدا ."

"تحت أمرك"

"بالمناســـبة، تبدو بكامل أناقتك وأنت ترتدي هذا القميص الذي يذكرني بأول صدفة جمعتنا ."

طأطأ رأسه خجلا، دخلنا معا إلى بيت الضيوف، ومن سوء حظي، رأيت صرصورا يدب على السقف، لم أنظر إلى الجالسين، بل عيناي كانتا تتابعان تلك الحشرة البائسة، وهي تشتُم اليوم الذي لاقاني بها، حملت نعلا وقذفت به في الهواء، انصـدم الجميع، وهموا بالفرار، وأنا لازلت أتابع الصرصـور وأرمي عليه أي شيء وصلت إليه يداي، فجأة صدر صوت يزلزل الأرجاء .

"أيتها الخرقاء، ماذا فعلت؟"

"أمي، أردت أن أقضي على ذلك الصرصور الذي...

"هل تظنين أنني لم ألاحظ وجوده أيتها الحمقاء، سيحسبون حقا أنك مصابة بذهان عقلي بتصرفاتك تلك، حتى نعل أمه لم ينج من جنونك، لا أعلم متى ستعقلين؟"

"أظن أن المشاكل هي من تبحث عني، ولست أنا، ألم يكن على ذلك الصرصور القفز من مخبئه سوى في هذا اليوم بالذات ."

"ربما كان عليه الظهور في طبق الحلوى أفضل ."

"أمي أرجوك، هذا ليس مضحكا ."

"لا أعلم هل سيأتون مجددا؟ أم أن حظك هذا يخبئ لك شيئا أفظع ."

"أمي أنا أثق به، سيقنعهم بالمجيء، فمن أحبك رغم كل ما حدث، سيظل يحبك إلى آخر العمر ."

خرج أبي من الحمام وقاطع حوارنا، ماذا حدث؟ هل انتهت مرا سم الخطبة من دوني؟

زمن الأشباح

كان تائها في أحد الأزقة الخالية ، بثياب ممزقة بالية، يتجول في حلقة مفرغة تأخذه إلى نفس النقطة من الحياة، يذهب إلى أبعاد فرسخية، ثم يعود ولم يتغير له حال أو يتحسن له بأس، كم احترقت أصابعه وهي تشحذ أوتار العود على ناصية الطرقات، تاركا للمارة فضل الاستمتاع بمعزوفاته الحزينة، ليقدر أحدهم صنيعه ببضع دريهمات يلقيها فوق لحافه المتهالك، كما يلقي بالأزبال في مطرح النفايات، يلتقطها بيمناه المعروقة بالجهد والإنهاك الذي يسري بين عروقها، يمضي إلى زاوية مفترشة بأوراق الصفيق وجلود الحيوانات، ليحط أتعابه وما يثقل كاهله، ويكسر فقرات ظهره، ثم يضع رأسه تحت رحمة الأحلام كي تطمس ذاكرته لبضع ثواني قبل أن يعود إلى واقعه مع تسلل أول خيوط الشمس .

ترامت على أقدامه أجسام ناعمة تدغدغ أصابعه، مضت ليلة هادئة تحمل في سماءها الظلماء نجوما لماعة كحبات اللؤلؤ .

أيقظه في الصباح لسان يسيل لعابه على وجنتيه، كان جروا لطيفا يلعق وجهه ويحشر فروه في صدره، راق له ذلك الدفء والاهتمام، راقت له المشاعر التي تفيض من أرواح لا تعرف للغدر طريقا ولا للهجر تأويلا، مطط نفسه استعدادا ليوم سيمضي كباقي الأيام المشحونة باليأس والوجع، في عالم ماتت فيه القلوب، وتكدست الجيوب، وقطعت يد الجود، أصبح اصطحاب الكلاب أفضل من معاشرة البشر .

ليزا أو كما يطلق عليها، هي أنثى كلب قد وضعت ثلاث جراء منذ شهر، أصبحوا يؤنسون وحدته كلما أقدم إلى الزاوية بأطراف متراخية وجسد يطلب المعونة والرحمة، يتحلقون حوله ليمدوه بكل ما يحتاجه من حب ودفء .

ذهب كالعادة ليختار ركنا من الأركان، التي تنبعث منها رائحة القذارة، واتكأ على أحد الجدران الخشنة، وألعج حطب العود الذي استيقظ بمشاعر الحزن مشبوكا بخيوط الأمل بتلقي بضع دريهمات يسد بها رمق جوعه اليومي.

الناس مارة، والقلوب مصفرة بمرض البخل والشبع، لو كانوا جوعى لعرفوا ضراوة الجوع، وأحسوا بتلك القلوب التي تبكي الدماء عوض الدموع .

من بين تلك الأجسام الراكضة التي تمر كأ شباح متهالكة، تخدرت عيناه على كائن صغير يختلف عن مسار القطيع، جامدا في ركن بارد، يقتات من بقايا الأطعمة المتناثرة على الأرض، تقدم نحوها، فلاحظ مدى ضآلة حجمها ونحول خديها المضمرتين، وبروز عظمتي فكيها، كانت طفلة صغيرة، تغطيها كدمات زرقاء على سحنتها المتسخة، وكانت ملابسها رثة وممزقة، فعلا ماتت القلوب الرحيمة، والعيون الحانية، أصبحت القسوة تنشر جناحيها في كل بقعة من بقاع الأرض، لا ضمير يؤنب، ولا ذراع ترحب بالمحتاجين والضعفاء والمشردين، ذاب قلبه أمام نظراتها المنكسرة التي يعششها الفراغ، جذبها نحوه وعانقها بشدة، سالت من عينيها دموع حارقة ألهبت روحه وأوجعت قلبه، شدها من يدها برفق وجلبها إلى زاويته التي تسكن فيها قلوب لا تنتظر منك عطاءا، أو أن تختار مصاحبتك لأنك سيد من الأسياد، أو قارون يمتلك من الذهب ما قد يفرش به بساطا يمتد لأميال، إنها تحبك وتأويك بحضنها، فقط لأنك تحمل قلبا حيا ينبض بمشاعر صادقة في زمن ماتت فيه البساطة والجمال الباطني، والنقاء الذي يشع في أوصال الأرواح التعبة التي أنهكها روع القسوة، وتحجر القلوب، وشزر العيون، والطمع والفحشاء والمنكر .

ارتسمت على شفاه الطفلة ابتسامة أبرزت فيضا من شعاع على روحها القانطة، تبددت الحسرة على ظلمة عينيها الموجوعتين، ولمعتا بالبريق النحاسي الذي أسعد الجراء، وكذا أمهم التي انتفضت أذناها مرحبة بفرد جديد من أسرتهم الصغيرة .

مضت الأيام، وألفت الطفلة حياتها الجديدة، حظيت بمعاملة طيبة، أخذها عند النبع القريب، لتنتعش بمياهه وتزيل عنها القليل من القذارة التي تكسو جسمها، ألبسها ملابس جديدة، وتركها تتفسح قليلا مع ليزا وجراءها في رحاب الطبيعة، وبالجوار وجدت عدنا يحيط بالمكان، بدأت تركض وتلعب ككل الأطفال، فجأة اصطدمت بطفل صغير، فتلطخت ثيابه بطعام كان يحمله، مما أثار غيظ أبيه الذي كان واقفا في الجوار، فزمجر غاضبا على الفتاة الصغيرة، اشار لها بسبابته محتقرا، ومحدقا إليها بنظرة دونية، نهرها بالكلام الجارح، فأتت ليزا مهاجمة وهي تنبح مسعورة، تكاد تنقض عليه بأنيابها البارزة وذقنها المرتعش الذي يتقطر منه اللعاب، اصفر وجهه مذعورا، فحمل ابنه وانصرف، جثت الطفلة على ركبتيها وهي تجهش بالبكاء، فطوقت ليزا نحرها ودفنته في حضنها بكل ود وحب.

ذهبت الطفلة إلى واد عميق وأطلت برأسها الصغير لترى انعكاس صورتها على سطح المياه العذبة، وأخذت تحدق في تقاسيم وجهها وتتردد إلى مسامعها تلك الشتيمة التي كسرت قلبها: أيتها القذرة القبيحة، تذكرت صورة أبيها جيدا وهو يتركها تحت رحمة الشارع بعد أن توفيت أمها، رحل بلا عودة، ساحقا بكلتا قدميه رابطة الدم والرحمة التي تجمعهم، لكن فجأة تغيرت

تقا سيم وجهها، ركزت على انعكاس صورتها حتى بانت لها أمها في أعماق المياه تلوح لها مبتسمة كأنها تنادي إليها، صرخت: أمـــــــــــي!!!

مدت رأســها أكثر فأكثر، لكنها فقدت توازنها وســقطت في حضــن أمها، تبعتها ليزا و قفزت وســـط الوادي لكنه كان أعمق مما تتخيل، فغرقتا وبقيت الجراء تنوح بجانبه ، والناس مارة كالأشــباح المتهالكة، تلبدت الســماء وتلونت الطبيعة بلون البؤس والشقاء، تساقط المطر وغمر الأرض بطوفان جرف كل من عليها من أموات وأحياء .

حادث غريب

ذاب القمر في السـماء تحت ليلة ممطرة، تناثرت القطرات على زجاج نافذتي، اقتربت من الزجاج ومددت يدي نحو القطرات ألامسـها، كانت مثلجة، فتحت النافذة وتسرب عبرها دفء تلاعب بخصلات شعري النافرة، كان عويل السماء يهمس في آذاني تعويذة السبات، انسحبت إلى عالم كهدير الأمواج، كبحر منسيـ على جزيرة نائية، وغادرت جسـدي إلى راحة أبدية، تغوص في لحن يتسـاقط من كائنات تلمع ألوانا قرمزية، راق لي اللحن، راقت لي الهمسـات، ذبيب أصوات مدني بالسكينة، وهمت في اللاوجود الوجداني، تنصت إلى ألحان شـجية ترقص على أوارق ملقاة هنا وهناك عليها أحرف بعثرت فكري ولخبطت ركنا من أركان ذاكرتي، لامسـت السـطور مشـاعري، وتعثرت بأبجدياتها التي لا تشـبه ملكة الكتابات المرتسـمة على نبضـات قلبي، كان القلم السـحري يشـق ذرات الفضـاء وهو يهوي على الأرض، مسـكته بأناملي المرتعشـة لكنه انفجر في الهواء وتلألأ المكان ببريق أخاذ لامس سـطح المحيط الذي تسـبح فيه أجسـام قرمزية، تطير عاليا ثم تتخبط بين الأمواج، صـوت ما أتى من العالم الخارجي يهمس لي: اسـتيقظي، لقد تأخرت عن الحفل، فتحت عيناي المعمشـتين وأنا أحدق في أوراقي المبعثرة بجانبي على سريري الذهبي، يا إلهي كم مضىـ من الوقت؟ لا بد وأنني تأخرت، لولا أختي الصـغيرة لما اسـتيقظت من هذا الحلم الغريب، ولن تغفر لي صديقتي لأنني لم أستطع حضور عيد ميلادها في التوقيت المناسب بسبب نومي الثقيل هذا، مجددا غططت في نوم عميق والقلم يتخلل أناملي، كنت أكتب، وحلمي هو أن أشـتهر بكتاباتي، وتحتل كتبي العالم بأسره، لكنني لا زلت أحلم، ولا زال هذا الحلم صعب المنال بسبب المنافسات القوية التي اجتاحت سـاحة الأدب بكل أنواعه، وحتى إن أردت أن تتألق في هذا المجال، فيجب عليك أن تخالف ما اعتاد الجمهور على تلقيه والغوص في بحر

خياله بين السطور، على أية حال، سأذهب الآن لأرفه عن نفسي- قليلا، فقواي العقلية بحاجة إلى الاسترخاء وتجديد خلايا الذاكرة، لأن القلم قد توقف في نقطة عويصة ولم يعد في جعبته المزيد، لذلك لا مزيد من إجحاف النفس، وهي تنجدني لأتوقف حتى تسترجع ملكة الإلهام من جديد .

حملت حقيبتي وهديتي المغلفة بعناية، ورحت أمشط ثنايا الطريق بقدماي، كما القلم ينساق بين السطور، ويسبح بين عبق الحروف وشذى الخيال، لامست قطرات الندى التي تزين أوراق شجر الليمون المرصوف على طول الطريق، وأنا أقفز وأدور بكسوتي الزهرية التي تخفق في الهواء كنبضات قلبي، امتزج العطر الطيب مع شهقات أنفاسي، واندلعت روحي وميضا خفيا، لن يراه أحد سواي، وأنا في غمار سعادتي، لم ألتفت حتى اصطدمت بوحش أسود ضخم، أو كما تخيلت، صدر صوت رنين قوي وانفتح الباب، كنت ملقاة على الأرض وغائبة عن الوعي، أغشى الضباب ملامح وجهه وهو يصيح بي: هل أنت بخير؟ أرجوك استيقظي، بعد لحظات استفقت من غفوتي مصدومة، وأنا أنظر إلى ساعة يدي: يا إلهي لقد تأخرت، قال لي وهو يهرب بسرعة إلى سيارته: المعذرة، إن كنت بخير ولم يحدث لك شيء سأذهب، فلدي شيء مستعجل أود اللحاق به، أرجو منك مسامحتي .

"تمهل يا هذا، هل تعتقد بأنك نجوت، صدمتني بسيارتك، وكأنك صدمت حشرة ."

لم يتوقف، لا أصدق ذلك، مضى- في طريقه بسرعة مفرطة، وأنا أتابعه بنظراتي الملتهبة، وقلبي يهتز بشحنات الغضب، رأسي يطن بذبذبات ملخبطة شتتت أفكاري وحيرت من أمري، وأخيرا التمعت عيناي بمكر حين رأيت بطاقة

شـــخصـــية ملقاة على الأرض تعود له، بالتأكيد الحياة لا تظلم أحدا وتقف بمحاذاة المظلومين، التقطتها، وعدت نفسيـــ أنني ســـأجعله يدفع الثمن غاليا، ويندم أشد الندم على تصرفه هذا، ومن دون أن أتحقق من معلومات البطاقة، رميتها في حقيبتي واتجهت صوب الطريق بسرعة قياسية، أحاول أن ألحق على حفل صـديقتي قبل أن تثور وتغضـب مني، لأنني لا أسـتطيع تمضـية يوم من دونها، ستخاصمني ولن تكلمني لأيام .

وصـلت بمشـقة أنفس، ووجدت الباب مفتوحا على مصرـاعيه، وما أعاد النفس إلى مسـام روحي، هو الدندنات وتغريدات جهاز الموسـيقى التي تنبثق كسمفونية الحياة من شرفات الحالمين، دخلت في جوف الألوان الفاتحة للنفس، والروائح الزكية التي تتصـاعد كدخان زهري يتشـكل من يد تسـحب أنفي إلى مخبأ الطعام، فجأة، وقفت أمامي كشـــبح مخيف، أفزعتني وهي تحدق بي وأمارات الغضـب على محياها، واضـعة يديها على خصرـها، ثم صرخت بي: "ما كل هذا التأخير يا جميلة، فأنا دائما أحضرـــ إلى أفراحك قبل حضـــور الكل، وأشاركك بالترتيبات ."

"عزيزتي، أنا أعرف كل هذا، وأقدر وقتك وتضحياتك معي، وآسفة جدا، لكن لا تدعي هذا المشكل الصغير ينغص عليك جمالية يومك الكبير، فبعد انتهاء عيد ميلادك، سأحكي لك عن الحادث الذي تسبب في تأخري ."

"أي حادث؟ ماذا تقصدين؟ هل أنت بخير؟ "

"أنا بخير، فيما بعد نكمل الحديث، بالمناسبة عيد ميلاد سعيد، ها هي هديتك، وغلفتها بلونك المفضل، الزهري ."

"الله، شكرا لك، تفضلي عزيزتي، انضمي للأصدقاء، سأعود بعد لحظة ."

كانت الأجواء داخل القاعة أشبه بحلم جميل، تشاركنا الفرح مع أفراد أسرتها وأصدقاءنا والأطفال الذين جعلوا من فضاء المكان مسرحية للرقص والحركات التي تنم على روح تفيض سعادة وبهجة، تحلقنا حول الموائد المزينة بأشهى الأطباق وأصناف من الحلويات، ورحنا نتناوش ما وصلت إليه أيادينا، حتى امتلئ بطننا للآخر .

انقضى اليوم وحل المساء، انصرف كل المدعوين، وجلسنا وحدنا نتبادل أطراف الحديث، حتى تذكرت البطاقة، جلبت حقيبتي وأخرجتها، ثم أخذنا ندقق النظر في المعلومات، فجأة وصلنا إلى عنوان يحمل اسم مؤسسة مبادرة ارتقاء لدعم الكتاب، كيف؟ لا أصدق عيناي، هل وقع حظي على هذه البطاقة بالصدفة، أم هي خطة من خطط القدر، أصابني ارتجاج في رأسي ولمعت عيناي كأنني حصلت على كل ما كنت أسعى إليه، وأخيرا وجدت الشخص المطلوب ليحقق حلمي، وما يلزمني سوى وضع اللمسات الأخيرة في العمل الذي أود نشره، ودعت صديقتي والأمل يطرق باب قلبي، وهي بدورها تبارك لي وتدعو لي بالحظ الموفق، شققت طريق لعودة، وعلى مقربة من مكان الحادث رأيت تلك السيارة مجددا، ونفس الشخص واقف بجانبها، أشار لي بيده، فاقتربت منه حتى تبينت ملامحه التي كانت غير واضحة لي أثناء الاصطدام، وبادر بمخاطبتي: "أنا آسف جدا على الحادث، لقد كنت في عجلة من أمري، إذا أردت أن ترفعي عني قضية، فافعلي، أنا مستعد بتعويضك عن كل شيء ."

"حسنا، مادمت قد أتيت بنفسك واعتذرت، سأتنازل عن القضية، لكن قبل أن نتفاهم، هل فقدت شيئا ."

"لا أظن أنني فقدت شـــيئا، انتظري لحظة". أخرج محفظة نقوده وبحث في الجيوب، امتقع لونه .

"يا إلهي، بطاقتي الشخصية، لقد سقطت مني".

"لا بأس، فهي بحوزتي ."

"أحقا، لا أعرف ما أقول، ممتن جدا ."

"لكنني لازلت غاضبة من سلوكك ذلك ."

"جد آسف، ما الذي يجب علي أن أفعله ."

"فلتحقق حلمي ."

"حلمك؟ هل أنا مصباح علاء الدين، أي حلم؟ ."

"نعم، هو أنت، أود أن تقوم بنشر كتابي ."

"آه، قرأت ذلك في بطاقتي الشخصية، حلمك صغير جدا، فلتكن ألف نسخة من الكتاب، ننشرـــه لك في أنحاء البلدان، وهذا إن راق لنا قلمك بحق، وكانت كتاباتك مميزة وتستحق ."

"طبعا، ستعجبك كتاباتي، ثق بي، إن لقلمي سحر لا ينضب ."

خـــــاتم

انتهى المشوار الأدبي

انتهى النقش على السطور

تبدد العالم الافتراضي الذي صنعته

ها هو القلم يخط اللمسات الأخيرة من رحلة الحلم

شكرا لكل من استمع واستمتع بالسفر عبر السطور

شكرا لكل من أشرف على نقل العمل من العتمة إلى بساط النور

لأتشاركه مع قلوب تنتمي إلى علياء النجوم، وشدو الطيور، وحياة ما وراء البحار، وبراءة الصغار، وقناعة الكبار

مع أطيب التمنيات وأندى العبارات

سدد الله خطواتكم نحو النجاح

الفهرس

- الروح الغاضبة ____ 9
- الفراخ الثلاثة ____ 15
- السراب الأرجواني ____ 27
- شبح الموت ____ 34
- خيال أم واقع ____ 58
- لغز الأرض ____ 63
- دماء الحياة ____ 69
- الاكتئاب ____ 74
- لعبة القرن ____ 79
- الخطيئة ____ 85
- وحش الغابة ____ 95
- حورية السماء ____ 107
- يوم الحظ ____ 113
- صاحب الظل الطويل ____ 119
- الخرقاء ____ 125
- زمن الأشباح ____ 131
- حادث غريب ____ 136
- ختام ____ 142